مبادرة

القراءة بالمجان

الكتاب: مواسم الفراق
الكاتب: شيماء محمود
رقم الإيداع: 1643/ 2021
ISBN: 978-977-880-117-4
تصميم الغلاف:
تدقيق لغوي: سارة صلاح

دار ليان للنشر والتوزيع
مدير النشر: فتحي المزين: 01282288056
Email: layanpub@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، وأي محاولة للطبع أو النشر بأي طريقة دون
موافقة كتابية يعرِّض صاحبها للمساءلة القانونية

شيماء محمود

مواسم الفراق

رواية

لبان
للنشر
والتوزيع

إهـــــــداء

إلى أمي الحبيبة وأبي الغالي..
دمتم سندا وأمانا لي في زمن عزّ فيه السند.

إلى روح زوجي الحبيب..
مؤلمة هي سطوة حضورك بقدر ما هو مؤلم طول غيابك،
فغيابك شديد الحضور..

إلى أبنائي الأعزاء ورجالي الصغار..
عُمر ومعاذ وأحمد
أحبكم كما لم أحب أحدًا في هذا العالم..

إهـــــــداء

إلى إخوتي الذين لا تطيب حياتي إلا بهم..
إلى أصدقاء العمر..
إلى كل مَـــن تـــرك في نفـــسي ذكـــرى طيبـــة فأثمـــرت وظللـــت
ورطبـــت مـــن هجـــير الحيـــاة..
إلى كل محنة جعلتنا ما نحن عليه الآن.. أهدي هذا الكتاب.

أمسية شتوية

أمسكت بإحدى يديها كوبًا كبيرًا من مشروب الشوكولاتة الساخن، وباليد الأخرى هاتفها، ودخلت إلى الشرفة لتستمتع بلفحات الشتاء الباردة على وجهها الرقيق المنهك جراء يوم عمل طويل..

ألقى الشتاء بظلاله الكئيبة على الشوارع فأصابها بالسكون، بينما أحكمت فريدة شال جدتها حول كتفيها، ذلك الشال العريق الذي تتوارثه الأجيال فيما يبدو..

كان لجدتها، وبعد وفاة جدتها انتقل لوالدتها التي تصر دائمًا على وضعه حول كتفيها بإحكام كلما همت فريدة للخروج إلى الشرفة في ليالي الشتاء الباردة كعادتها، وكأنه تعويذة ما أو دواء يقيها من نزلات البرد، والالتهاب الرئوي المحتمل الذي تتنبأ لها به أمها كلما فتحت النوافذ ودخلت إلى الشرفة لتستمتع بأجواء الشتاء الباردة الكئيبة التي لم تكف عن حبها يومًا..

ارتشفت فريدة رشفاتٍ حَذِرة من الكوب الساخن وهي تمدِّد ساقيها على الكرسي المقابل، بينما عبثت أناملها بالهاتف

متصفحةً مواقع التواصل الاجتماعي، متنقلةً من تطبيقٍ لآخر.. لا جديد..

جدال أزلي على صفحات الفيسبوك بين مُحِبِّي الصيف ومحبي الشتاء، أخبار كئيبة تعم أرجاء العالم يزيدها ليل الشتاء كآبة..

لفت نظرها منشور قصير مختلف، أعادت قراءته بتمهل:

«اليوم قابلت صديقًا قديمًا، كنا ندرس معًا في المدرسة منذ ما يزيد عن خمسة عشر عامًا، تغير كثيرًا.. لم يعد ذلك الصبي الجامح، بل أخفى جموحه الطفولي تحت طيات حلّته الأنيقة.. نظرت إليه مبهورًا وكأنني أنظر إلى نفسي في مرآة.. لن تصدقوا ذلك الشعور».

ابتَسمتْ فريدة..

تفهمه تمامًا رغم أنها لم ترَ أصدقاء المدرسة منذ أكثر من عشرين عامًا، لكن من العسير عليها حقًّا أن تصدق أنهم قد نضجوا أخيرًا، بل وأصبح لكل منهم مسؤولياته أيضًا.. هذا الخاطر بحد ذاته يضحكها حد البكاء..

لا يستطيع عقلها حتى أن يتخيل أن رفيقات المدرسة قد أصبحن أمهات، وأن لديهن وظائف هامة وأهداف كبيرة يسعون لتحقيقها، ولكن لمَ العجب؟! حتى هم لن يتوقعوا أنها آثرت العمل والنجاح على أي شيء آخر، وظلت بلا زواج حتى أواخر الثلاثينيات، وهي الفتاة الحالمة التي ظلت تحلم بالحب الحقيقي طوال فترة مراهقتها.

تذكُـر فريـدة بعـض الوجـوه وبعـض المواقـف، لكـن يبـدو كل شيء في هـذا الجـزء مـن ذاكرتهـا محاطًـا بضبـاب كثيـف، وهـي التـي كثـيرًا مـا ادَّعَـت أن لهـا ذاكـرة حديديـة وأنهـا لا تنسـى المواقـف أو الوجـوه أبـدًا..

خطـرَ لهـا خاطـرٌ فلمعـت عيناهـا واعتدلـت في جلسـتها، كتبـت اسـم مدرسـتها في خانـة البحـث عـلى موقـع التواصـل الاجتماعـي الشـهير فيسـبوك.

تبـدو الفكـرة سـخيفة، فالمدرسـة مـا زالـت موجـودة طـوال هـذه السـنوات، وسـتجد بالطبـع مجموعـات تضـم طـلاب المدرسـة، لكنهـم ليسـوا الطـلاب القدامـى مـن جيـل الثمانينيـات بـل هـم غالبًا مـن جيـل الألفينيـات إذا صـحَّ التعبـير..

كتبـت فريـدة منشـورًا قصـيرًا وأرسـلته إلى المجموعـة، أخبرتهـم فيـه بأنهـا قـد درسـت في هـذه المدرسـة منـذ سـنوات طويلـة، وكانـت تأمـل أن تجـد بعـض زمـلاء دراسـتها هنـا في هـذه المجموعـة.

تـرى هـل يتحقـق الأمـر حقًّـا ويحـدث لهـا مـا يحـدث في الروايات والأفـلام مـن اجتـماع شـمل الأصدقـاء واكتشـاف أنهـم كـما هُـم، بـذات لثغاتهـم وضحكاتهـم العاليـة وتعبيراتهـم المضحكـة؟!

هذا سخيف!

حتـى لـو وجـدت صديقـة أو صديقتـين مـن صديقاتهـا القدامـى، حتـمًا سـيطالهن التغيـير الـذي يصيـب كل شيء في هـذا العـالم.

ثم إنها لم تكن تحب مدرستها ذلك الحب، ولم تكن شديدة التعلُّق بزميلاتها، بل كانت متسقة مع ذاتها مذ كانت صغيرة، تعرف جيدًا أن صداقات المدرسة لا تدوم، وخير دليل على ذلك الإجازات الصيفية التي كانت تحجب أخبار الجميع عن الجميع، فما بالكم بتغيرات ضخمة وأحداث حياتية وعمل وزواج وأولاد؟!

وقبل أن تهم بحذف المنشور، وردَّ إليها إشعارًا بأن هناك تعليقًا على المنشور الذي كتبته في المجموعة منذ دقائق..

«أي دفعة تقصدين؟ أنا دفعة ٢٠٠٠»..

ابتهجت ولم تكد تصدق.. لقد تخرجت من هذه المدرسة في نفس التوقيت تقريبًا أو قبل ذلك بقليل، ولا بُدَّ من أن صاحبة التعليق تعرفها أو صادفتها يومًا..

نعم شكلها قد تغيَّر بالتأكيد، لكن هناك بعض المواقف والذكريات وأسماء المعلمين والمعلمات ووجه مديرة المدرسة الصارم والمكفهر دائمًا، هي أشياء حتمًا لا تُنسَى.

لذلك اعترتها الحيرة حين أخبرتها صاحبة التعليق أنها لا تعرف عم تتكلم، ولا تتذكر أيًّا مما تقول مرددة في حيرة:

- لا أذكر موقفًا واحدًا مما ذكرت، ومديرة المدرسة كان رجلًا وليس امرأة.. هل أنتِ متأكدة أننا نتحدث عن المدرسة ذاتها؟!

تلك الحمقاء.. هل تظنها تخطئ اسم المدرسة التي درست فيها كل تلك السنين والتي تبعد دقائق معدودات عن منزل عائلتها القديم؟!

انبرت تكتب تعليقات متتالية بعصبية:

- نعم بالطبع.. درست بمدرسة فتيات الغد الثانوية بنات منذ ما يقرب من عشرين عامًا، وتخرجت منها بعدك بعدة أعوام.. ألست خريجة دفعة ٢٠٠٠؟!

وكان رد الفتاة عبارة عن وجه تعبيري مرتاع ثم كتبت بعد هنيهة:

- أنا دفعة (مواليد) عام ٢٠٠٠ م وتخرجت من المدرسة منذ ثلاث سنوات فقط، وما زلت أدرس في الجامعة.

كأن دلوًا باردًا قد صُبَّ على رأسها، هل أصبحت الآن من عجائز مدرستها الثانوية؟!

لم يكن انتماؤها لمدرستها كبيرًا، ولم تكن من أوائل المدرسة أو من طالباتها المشهورات بالتفوق أو حتى بإثارة الشغب، كانت تمتلئ خجلًا وحياء تتفوق في بعض المواد الدراسية وتتعثر في أخرى، ولا تسعى للفت الانتباه.

ولكن ها قد مرَّت الأيام والسنون وغمر وجدانها الحنينُ إلى تلك الأيام الخوالي، والتي اكتشفت أنها كانت أجمل أيام حياتها بالفعل، كما كانت تخبرها مدرسة اللغة الإنجليزية دائمًا.

لكنه على ما يبدو اكتشاف متأخر لا يصيب النفس إلا بالحسرة، والمزيد من الحنين لأيام خالية ممتلئة بمزيج عجيب من براءة الأطفال وحيوية وانطلاقة الشباب.

تعليق مقتضب آخر ملأ عينيها ببريق لامع، وكان بداية للمّ الشمل وانتظام عُقد أصدقاء طفولتها بعد أن انفرط في دروب الحياة لما يربو عن عقدين من الزمان، كان تعليقًا قصيرًا يتقافز المرح من بين حروفه:

- فريدة منصور؟! لا أكاد أصدق!!

نعم.. أنا فريدة منصور، وسأحكي لكم اليوم قصة ربما كانت جديرة بأن تروى، وربما كانت مجرد قصة عادية لم أرد بتخليدها سوى أن أتمسك بما تبقى لديّ من براءة وطفولة وذكريات كانت سعيدة.

***

وكأن سنوات لم تَمُر

تقافزت فرحة محتضنة هاتفي المحمول، ملتهمة رسائل أصدقاء طفولتي وصباي.

فقد وجدت أخيرًا صديقتي «أمل» التي أخبرتني أنها تعرف حساب صديقتنا «علا»، أما علا فقد أحضرت بدورها صديقتين وهكذا... إلخ، حتى جمعت كل أصدقاء الدراسة في جروب محادثة جماعية عبر التطبيق الشهير «واتساب»؛ حتى إنني كدتُ أسمع أصداء طابور الصباح وتحية العَلَم في خلفية صوت الإشعارات المتلاحقة، التي تلهَّف أصحابها لمطالعة جزء بعيد من طفولتهم الراحلة.

في مدينتنا الصغيرة، كانت صديقات المدرسة الثانوية، هن نفس زميلات المدرسة الإعدادية أيضًا، بل إن معظم صديقاتي هنا كن هن نفس زملاء المرحلة الابتدائية كذلك.

وبعد ليلة كاملة بلا نوم، نتابع فيها أخبار بعضنا البعض بكل لهفة، وقمنا بتسجيل أرقام الهواتف، كما أضفنا بعضنا على

وسائل التواصل، بدأنا نهدأ، وأدركنا أننا لن نستطيع المواصلة بتلك الطريقة، فالمدرسة بكاملها أصبحت على جروب الواتساب الآن.

كنا في المرحلة الثانوية كلنا أصدقاء وزملاء، لكننا كنا منقسمين إلى مجموعات صغيرة كل مجموعة تمثل «شلة» صغيرة كما كنا نسميها، وكم كنت سعيدة حينما اجتمعنا من جديد.

رأت لبنى أن ننشئ لأنفسنا مجموعة أخرى على واتساب، هربًا من ذلك الصخب، ووافقنا على الفور فأنشأت المجموعة وانتقلنا فورًا إلى هناك.

تطوع البعض منَّا بإرسال صور قديمة تجمعنا بمدرِّسي المدرسة، وأخرى تجمعنا معًا، وتوالت الصور الجديدة لنقارن ضاحكين بين الفتيات الساذجات اللاتي كن يلبسن مثل الأولاد وصور النساء الجميلات الراقيات اللاتي أصبحن ينافسن ملكات الموضة وسيدات المجتمع الآن.

كنا في حجر منزلي بسبب فيروس كورونا، مما شجَّعَنا أكثر على التواصل، وحكاية ما حدثَ لكلٍّ منَّا بعد المرحلة الثانوية.

ولأنه بدا أخيرًا أن لهذا الحظر فائدة؛ فقد اتفقنا على إنجاز العمل للبنات العاملات، وإتمام مهام البيت والأولاد للمتزوجات قبل أن تحكي كلٌّ منَّا ما استجد في حياتها من أحداث باختصار؛ لنطلع على أحوال بعضنا البعض، ووضحت لهن أن هذا ليس أمرًا إلزاميًّا، مَن أرادت أن تحكي حكايتها بإسهاب فلتحكِ،

ومَـن أرادت الاحتفـاظ بهـا لنفسـها فـلا مشـكلة، ومَـن أرادت أن تحكـي باختصـار رؤوس أقـلام فـلا بـأس.

واسـتأذنتهن أن أكتـب قصـص بعضهـن في مذكـراتي، ومَـن يـدري.. ربـما نشرتهـا يومًـا وأنـا عجـوزٌ؛ لأجمـع شـمل صديقـاتي العجائـز مـرة أخـرى في الشـيخوخة، كـما جمعتهـن في سـن الشـباب، وكـما جمعنـا القـدر في سـن مبكـرة.

وبـدأت الحكايـات، وتوالـت أصـوات الإشـعارات منبئـة عـن تسـجيل صـوتي يحمـل في طياتـه الحكايـة الأولى..

حكاية أحلام.

***

أحلام

ترددت قبل أن أحكي لكم قصتي؛ ربما لأن بها من الحزن والكآبة ما بها، ونحن نبحث عن شعاع نور يشيع في نفوسنا الأمل والسعادة، لكن بما أن هذا دوري سأحكيها على أي حال..

نشأت في أسرة مكونة من أب وأم وخمسة إخوة كنت الأصغر بينهم، كنت شديدة التعلق بأمي فقد كنت أصغر إخوتي وآخر العنقود، أحببت أبي بالطبع لكن علاقتي بأمي طغت على علاقتي بأي فردٍ آخر في أسرتنا الكبيرة، وكيف لا وهي الأم والأخت والصديقة، باختصار كانت أمي هي كل عالمي.. كانت هي الحياة.

لم أكن ابنة مدللة أو مرفهة، لكنني لم أكن أبالي للدنيا همًّا، أعيش في بيت العائلة حيث الأخوال والخالات يحيطون بنا من كل جانب وبيت أعمامنا على بُعد خطوات من بيتنا.

كانت حياتي هادئة مثالية من وجهة نظري، تهتم أمي بشؤوننا طوال الوقت -ولي طبعًا من اهتمامها الجانب الأكبر- ويعمل أبي في منصب مرموق بوظيفة حكومية، ويجتهد كلٌّ منهما

في القيام بدوره في رعايتنا والقيام على شؤوننا، حتى صفت لنا الدنيا وشق كلٌّ منا طريقه في الحياة.

كنا نذهب إلى شقتنا في الإسكندرية لنقضي فيها أسبوعًا أو أسبوعين كلَّ صيفٍ؛ عندما تهب لفحات الصيف الحارقة على شوارع القاهرة، وكنت أستمتع كثيرًا بهذه الإجازة التي تبقيني في معشوقتي (الإسكندرية)، وكنت أتمنى دائمًا أن نمكث هناك لوقت أطول.

وفي عام ٢٠٠٤ لم أكن في أفضل حالاتي، كنت في السنة الثالثة في الكلية وأعدُّ الشهور والأيام حتى أتخرج وأبدأ حياتي العملية وأشق طريقي في الحياة كباقي إخوتي، لكن حدثَ ما لم يخطر لي على بالٍ.

رسبت!!

كيف حدث هذا؟!

الناس يرسبون في السنة الأولى أو الثانية، وأنا رسبت في ثلاث مواد فقط كلهم في تيرم دراسي واحد وهو التيرم الثاني..

كنت حزينة مذهولة، أبكي وأردد بأنه لا بُدَّ أن ثمة خطأ قد حدث، لكن أمي طمأنتني وساندتني قائلة:

- لا تحزني يا ابنتي فمَنْ يدري؟! ربما كان هذا هو الأفضل لك، لله سبحانه وتعالى حكمة في كل شيء، علمها من علمها وجهلها من جهلها..

لذلك كان هذا الصيف مختلفًا، كان كل شيء حولي يلقي على روحي بظلال قاتمة حزينة تغلل روحي وتكبل أنفاسي.

لم أكن أريد الذهاب معهن لبيتنا في الإسكندرية ذلك العام، كنت أحاول استيعاب ضياع عام كامل من عمري، وتأخُّر مستقبلي العملي لسنة كاملة، ولم أكن أعرف أن هذا آخر ما يجب أن أقلق بشأنه؛ فسنواتُ العمر تنساب من بين أيدينا وتمر بلا زاجر لها ولا قادر عليها، وإني أحكي لكم اليوم وقد مرَّ أكثر من خمسة عشر عامًا على هذا العام لا أدري أين ذهبَتْ هذه السنوات وتسللت، لتكون خلفي بدلًا من أن تكون أمامي، أليس هكذا يمضي بنا العمر؟!

ذهبنا في ذلك العام إلى الإسكندرية، التي فتحت لنا ذراعيها، فاستقبلتنا أحسن استقبال، وقضينا فيها أيامًا رائعة، استمتعنا وصخبنا ومرحنا ولم نفق إلا على موعد الرجوع إلى القاهرة لمعاودة كلٍّ منَّا لأعماله وأشغاله بعد أن تزوَّدنا ببعض الراحة من عناء القاهرة الطاحن.

كان أخي يقول دائمًا إن كلًّا منا يترك ساقيته الخاصة التي يدور فيها بنفسه، ليذهب وينال مكافأته بأخذ قسط من الراحة في الإسكندرية ليعود بعدها بنَفْسٍ أخرى وبطاقة متجددة تجعله يقبل على ساقيته بنفس راضية فيغمي عينيه ويدور فيها من جديد.

اقترحت أن أسافر أنا وأختي (عليّة) إلى القاهرة أولا لنهيئ

البيت، ونُعدّ الطعام من أجل باقي الأسرة فرحَّب الجميع بالفكرة، فسافرنا قبلهم بيومٍ واحدٍ، وبدأنا بإعداد وتجهيز البيت وإعداد الطعام لاستقبالهم.

تلقينا اتصالًا من أمي صبيحة اليوم التالي، أخبرتني أنهم عبروا البوابات للقاهرة وأنهم على وشك الوصول، وكنت قد جهزت طعام الإفطار وبدأت على مهل بتجهيز المائدة؛ ليتناولوا وجبة الفطور قبل أن يحصل كل منهم على قِسطٍ من الراحة من عناء السفر.

رن جرس الهاتف مرة أخرى..

- يا أمي الحبيبة لا تقلقي، أعددت الفطور وجهزت المائدة وكل شيء على ما يرام، كفاك إصدارا للتعليمات.

فاجأني صوت أخي:

- نحن في المستشفى، تعال أنت و(عليّة) فورا.

ماتت الكلمات على شفتي:

- هل تمزح؟! هل أمي بخير؟؟

أغلق الهاتف وهوى قلبي بين ضلوعي..

***

بخطوات ثقيلة هرولنا بطُرقات المستشفى وأنا أجر قدميّ جرًّا، واكتشفت الفاجعة..

سيارة نقل صدمت سيارتنا الصغيرة بعد أن كادت تطويها

تحت عجلاتها الضخمة، والنتيجة كسور مضاعفة في قدمي أمي الحبيبة التي سحقت عظام ساقيها جراء الحادث، وتحتاج إلى تدخُّل جراحي بشكل فوري.

أما أختي (دعاء) فقد كسرت ساقها اليمنى كسرًا مضاعفًا، ودخلت من فورها لغرفة العمليات.

لم يكن من السهل إدخال أمي إلى جراحة في هذا السن سيما وأن حالتها الصحية لا تسمح بذلك، فلننقلها إذًا إلى مستشفى آخر، ولنحضر لها أبرع الأطباء ولـ...

لم يمهلنا القدر، فقد عانت أمي من جلطات في القدم اليسرى والرئة وزاد الخطر وبات اتخاذ قرارات سريعة أمرًا ضروريًّا..

كانت إمكانيات المستشفى الحكومي الذي نقلوا إليه على إثر الحادث ضعيفةً، وعدد الأطباء قليلًا ويعلو وجوههم الإرهاق والتعب طوال الوقت، كأنهم لم يأكلوا أو يناموا منذ قرون سحيقة.

وفي خضم تلك الأحداث الكابوسية التي نعيشها، والأصوات العالية، وصوت الأنين وصراخ المرضى والطاقم الطبي على حدٍّ سواء وكأننا في ساحة سوق كبير يتبارى الجميع فيه لإظهار وعرض أصواتهم العالية؛ حضر أحد أمناء الشرطة طالبًا أختي دعاء - الراقدة على طاولة العمليات الآن- للمثول في قسم الشرطة لأنها كسرت عمود نور في الشارع أثناء الحادث!

***

«في حياة كل إنسان لحظة لا تعود الحياة بعدها كما كانت قبلها»

كنت أقرأ هذه العبارة كثيرًا، لكنني لم أعش معناها إلا في ذلك الوقت، حين أعطتني الأيام الهادئة الدافئة ظهرها وأصبحت أعيش واقعًا مريرًا أرى فيه أمي وأختي عاجزتين عن الحركة بعد نجاتهما بأعجوبة.

بذلت قصارى جهدي في رعايتهما آنذاكٍ، وباستماتة متناهية بذلتُ مجهودًا هائلًا في رفع معنوياتهما حتى تستطيعا مقاومة الألم ومواصلة العلاج الطبيعي الذي استمر شهورًا ليست بالقليلة.

كان الجميع يحاول مساعدتي قدر إمكانه، لكن من يترك عمله أو دراسته أو أسرته ليظل بجواري لا سيما مع استقرار الأوضاع إلى حدٍّ ما؟!

كنت أعرف موعد كل دواء لأمي الحبيبة، وموعد كل جلسة علاج طبيعي لأختي «دعاء»، كيف أحملهما بمساعدة أبي أو أخي لننزل إلى السيارة وأقود بهما لنذهب إلى الطبيب.

كان الجميع في البداية يساعدني بحماس، لكن مع الوقت ومع مشاغل الحياة أصبح الأمر شقَّ على الجميع إلايّ، فالأمر بالنسبة إليَّ مرحلة مؤقتة يعود فيها كل شيء إلى سابق عهده كلما اجتهدت في رعاية أمي وأختي، وفي سبيل ذلك اجتهدت.

«لا تحزني يا ابنتي فمَن يدري؟! ربما كان هذا هو الأفضل

لـكِ، لله سـبحانه وتعـالى حكمـة في كل شيء، علمهـا مـن علمهـا وجهلهـا مـن جهلهـا..»

تذكَّـرتُ كلـمات أمـي الحبيبـة وأنـا أحمـد الله عـلى رسـوبي العـام الفائـت حتـى أتمكـن مـن رعايتهـا هـي وأختـي كـما ينبغـي.

لمـاذا نلـوم أقدارنـا عـلى كل شيء؟! لمَ لا نسـتمتع بأكـبر قـدرٍ مـن الجهـل بالغـد لنعيـش أيامًـا سـعيدة بـدلًا مـن التباكـي عـلى لبـن أقدارنـا المسـكوب؟!

تمنيـت وقتهـا لـو رسـبت ألـف مـرة، ولـو تهشـمت عظامـي ألـف قطعـة بداخـل جسـدي قبـل أن يصيـب أمـي أي مكـروه.

كنـت أفتقـد حنانهـا وعنايتهـا بي بشـكلٍ خـاصٍّ وصوتهـا المـرح ونشـاطها، ولم أعهدهـا أبـدًا بتلـك الحالـة حيـث اغتنـم داء السـكري الفرصـة لينهـش بجسـدها كـما بـدأت الجلطـات تتسـلل لجسـدها الحبيـب.

لا.. لن أسمح بحدوث أيّ مكروهٍ لها..

ضممـت سريـر دعـاء إلى غرفـة أمـي حتـى يتسـنى لي خدمتهـما ورعايتهـما معًـا؛ سـيما بعـد زيـادة انشـغال الجميـع وتخـرج عليّـة وتصميمهـا عـلى النـزول إلى العمـل لأن حالتهـا النفسـية لم تعـد تحتمـل الجلـوس في البيـت، الـذي كان قـد تحـوَّل لمستشـفى صغـير.

وكانـت المـواد القليلـة التـي رسـبت فيهـا في التـيرم الثـاني؛ قـد جعلتنـي متفرغـة لهـما طـوال الفصـل الـدراسي الأول، فكنـت أنـام

عـلى الأرض بجـوار سريـر أمـي الحبيبـة حتـى في ليـالي الشـتاء البـاردة، حتـى أسـمع نـداء أمـي في الليـل فأهـرع إليهـا لأعطـي لهـا الـدواء أو أسـاعدها للذهـاب إلى الحـمَّام.

كنـت أتحاشـى التفكـير في حالـة أمـي المتدهـورة، وأنفـض عـن رأسي أي أفـكار سـوداء تعصـف بـرأسي، وجـلّ مـا أفكـر فيـه أن أمي سـتكون بخـير إذا نفَّـذت كلام الأطبـاء ووفـرت لهـا الرعايـة اللازمـة فالمسـألة مسـألة وقـت.

وفي مسـاء يـوم حزيـن تدهـور حـال أمـي بشـدة وتعـددت الجلطـات في جسـدها المنهـك، كنـت أدور في أرجـاء غرفتهـا كحيـوان جريـح، أقـوم بتجهيـز حقيبتهـا وأتصـل بالمستشـفى وبأخـي ليحـضر ملاقيًـا لنـا هنـاك عندمـا نـاداني صوتهـا الحبيـب..

أغلقـت الهاتـف واقتربـت منهـا راسـمة عـلى وجهـي ابتسـامة باهتـة، مطمئنـة إياهـا بـأن كلَّ شيءٍ سـيكون عـلى مـا يـرام، عندمـا نظـرَتْ إليَّ طويـلًا وأمسـكت بيـديَّ ضاغطـة عليهـا:

- سـأذهب يـا وردتي الصغـيرة.. لا إلـه إلا الله.. سـأذهب.. انتبهـي لإخوتـك.

انهمـرت دموعـي وأنـا أحتضنهـا وأتشـبث بهـا راجيـة إياهـا ألا تقـول مثـل هـذا الـكلام..

لكنها ذهبت..

بعد وصولنا إلى المستشفى بقليل أسلمت روحها لخالقها، وتركتني وحدي في عالمٍ كبيرٍ مزدحم لا يعبأ بي.

اختنق صوتُ أحلام بالبكاء، وساد صمت طويل.

***

مضى وقت طويل بعد وفاة أمي وأنا مريضة وغير واعية؛ أحاول الاستيقاظ من هذا الكابوس بلا جدوى.

تركتني؟!

لن أراها ثانية أبدًا؟!

ألا تعرف أنني لا أستطيع العيش بدونها؟!

لم يكن لي سواها، ولم أرَ سواها يومًا في ذلك البيت الكبير المزدحم (بيتنا).. حتى علاقتي بأبي كانت محدودة وشِبه سطحية.

كان حبها ورعايتها وحنانها يحجبان عني قسوة العالم، ويملآنني اكتفاءً فوق اكتفاء، فلم أنتبه حتى إلى حب أبي وحنانه.

كثيرًا ما كنت أسمع أمي تردِّد أن الحياة مثل قطار سريع، ومحطات الركاب تعج بالمسافرين وضجيجهم لكن لكل منهم محطته الأخيرة التي ينزل فيها مهما طال سفره.

كنت أواسي الناس في فقْدِ أمهاتهم، ولم أكن أدرك أن انكسار القلب وفراغ الفؤاد موتٌ فوق موت حتى ذقته، ومن ذاق عرف.

الفقدُ هو موتٌ داخليٌّ كُتبَ علينا قبل أن نموت، ترى من يخبر الراحلين بأن قلوبنا وأرواحنا معلَّقة بأكفانهم؟!

بكيت وبكيت وبكيت، ولم تعُد أمي.. وبعد مروري بمراحل الصدمة التي بدأت بالإنكار، وانتهت أخيرًا بالاستسلام لحقيقة أن أمي ماتت ولن تعود مهما فعلت.

بدأت باستكشاف شخصية أبي عن قُرب على استحياء، ذلك الرجل الطيب الوفيّ المحب لأسرته.

لا أذكر أنه أغضبني يومًا، وإن حدث وأخطأت يسارع هو إلى تطييب خاطري وتوضيح خطئي وينصحني بلا كلل أو ملل.

تعلقت به كثيرًا، بقدر غضبي من رحيل أمي.

ليس جزعًا ولا سخطًا ولعياذ بالله؛ لكن علَّها عقلية تلك الفتاة الصغيرة بنت العشرين التي تتجرع الفقد بأشنع صوره للمرة الأولى في حياتها.

استكملت دراستي بالتزامن مع رعايتي لأبي، ومتابعة أختي التي عادت تمشي من جديد بعد أن استكملت علاجها ومنّ الله عليها بالشفاء.

كانت حياتنا رتيبة هادئة، بعد انسحاب الأخوال والخالات من حياتنا بعد وفاة أختهم وتعلُّلهم بمشاغل الحياة.

وذات صباح، رحل أبي عن عالمنا بهدوء.

لحق بأمي بعد عامٍ من وفاتها بلا أي مقدمات..

ذهبت لإيقاظه فوجدته قدر فارق الحياة، هكذا ببساطة!

تصدع قلبي وتجددت أحزاني حتى جفت دموعي، وبدأت

أُدرك أقسى درس في الحياة، وهو أن «الكل مفارق».. لن يبقى لك أحدٌ مهما بلغ تمسكك به، أو تمسكه بك، إما أن يفارقوك وإما أن ترحل عنهم، بإرادتك أو رغمًا عنك.

العجيب أنه عندما أدركتُ هذه الحقيقة هدأت نفسي، وبدأتُ بإدراك الظروف من حولي وتقديرها بشكل صحيح.

تعلقت بإخوتي كثيرًا، كانوا جميعًا قد تزوجوا، وآثرت أن أؤخِّر زواجي حتى أطمئن إلى استقرار كل منهم في حياته.

ورغم أن حالتي الصحية لم تَعُد على ما يرام بعد وفاة أمي وأبي، إلا أنني كنت أتذكَّر وصية أمي الأخيرة لي دائمًا.. «خلي بالك من إخواتك»..

كنت أحرص على زيارتهم باستمرار، ورعاية أبنائهم عند انشغالهم، وحل خلافاتهم الزوجية أحيانًا.

ولأنني كنت أسكن وحدي في بيت أمي وأبي، فقد ألحّ عليَّ إخوتي بالزواج، خوفًا عليَّ من أن يفوتني القطار، والطريف أن القطار لم يفتني، ولكنه دهسني.

لم تكن زيجة سعيدة، ولكنها لم تكن بشعة كذلك، كنت أستطيع احتمال أي ظرف من ظروف الحياة بمجرد أن أتذكَّر أنَّ «الكُل مفارق»، ولا شيء يدوم على حاله.

كان ما يؤرقني هو إحساسي الدائم بالمرض والآلام الشديدة التي تهجم على جسدى خاصةً أثناء الحمل وبعد الولادة.

كنت أتحول إلى شخصٍ آخر لا أعرفه، أصمتُ بالساعات ولا أريد أن أرى أحدًا، كنت أبكي وأتألم طوال الوقت ولا أدري لماذا يحدث لي ذلك، لاسيما والتحاليل والأشعة سليمة، حتى اكتشفت السبب أخيرًا.

كنت مصابة بمرض «الفايبروميالجيا» أو (متلازمة الألم الليفي العضلي المزمن)، ولتفهموا ما هو هذا المرض اسمحوا لي أن آخذكم برحلة تخيُّلية كانت قد أخذتني إليها طبيبتي لأفهم ماهيته.

تخيلوا معي أن لديكم حفلًا كبيرًا أو مناسبة هامة، وقد خططتم لاستقبال خمسمائة ضيف، ولكنكم فوجئتم في يوم الحفل أن عدد الضيوف قد تجاوز العشرة آلاف شخص، كلهم يتكلمون في صوت واحد، ويتذمرون ويتململون!

هرج ومرج وزحام وأنت لا تفهم ماذا يحدث، ولا تعرف كيف تتصرف.

تبدأ بالاستغاثة وطلب المساعدة، لكن مَن حولك يخبرونك بأنك تبالغ، وأن عدد المدعوّين لم يتجاوز الخمسمائة ضيف! وأنت تقسم إنهم ليسوا كذلك، فيخبرونك بأنك إذا استمتعت بالحفل واندمجت فيه ستنسى هذه الهلاوس ويمر الأمر بسلام!

لكن المفاجأة أن الحفل لا ينتهي أبدًا، أحيانًا تهدأ الأصوات ثم ما تلبث أن تعود من جديدٍ، وأنت تريد أن تهرب لكن الأسوار عالية، ولا أحدَ يفتح لك الأبواب، ولا أحد يريد أن يصدقك.

تنتظر إلى أن ينتهي الحفل، لكنه لا ينتهي أبدًا، لا ترغب إلا في السكون. أن يصمت كل شيء.

تخيلتم الأمر؟

هذه هي حياة مريض الفايبروميالجيا.

تتضاعف إشارات مخه عشرات المرات...

زحام وصخب وألم شديد يدك جسده، يشعر بأنه سجين الألم طوال الوقت، وعندما يطلب المساعدة والدعم لا يصدقه أحدٌ لأن الإشاعات والتحاليل «كروت الدعوة» سليمة.

كل ذلك كان من الممكن أن يمر بشيء من الصبر إذا كان لهذا المرض علاج، لكن الأطباء يخبرونك بأن هذا المرض بلا علاج حتى الآن، عندها تبتلع غصتك وتلملم أوجاع جسدك مصطحبًا إياهم في طريق طويل تحيطه غاباتٌ مظلمة داخل نفسك، وعندما تصل إلى أعمق نقطة بداخلك تختبئ هناك، محاولًا أن تقنع نفسك وعقلك وإشارات مخك وهرموناتك وكل ما أصابه الشطط والجنون بداخلك؛ أن كل شيء سيصبح على ما يرام!

ورغم ذلك فإنك تعجز عن تحمُّل الضغوط والمشاكل، وتعجز كذلك عن تحمُّل أقرب الناس إليك وهم يتهمونك بالتخاذل والتمارض ويحملونك فوق ما تحتمل.

تشعر أن طاقة بطاريتك قد أوشكت على النفاد، وتتمنى

أحيانًا لو أنها نفدت؛ ليخرس كل ذلك الضجيج، ولكنك رغم ذلك تقاوم ببسالة؛ من أجل أن تكمل حياتك وأن تحافظ على حياة من تحبهم ومن هم متعلقون برقبتك!

وبهذا القدر القليل جدًّا المتبقي من طاقتك، تحاول أن تدفع نفسك إلى الأمام.. تصقل مواهبك التي قد أصابها الصدأ، ورغم أنك لم تعد «أنت» بعد المرض؛ إلا أنك تظل محتفظًا بـ«طاقة نور» صغيرة، ما زالت متمسكة بالأمل في حدوث معجزة ما.. ما زال قلبك متعلقًا برحمة الله..

صمتت أحلام لحظة، ثم أضافت:

ورغم كل شيء فأنا بخير، لم أستسلم بعد، حولي أولادي وإخوتي وما زلتُ أحاول تنفيذ وصية أمي رحمها الله، ما زال عندي من النعم ما يعجز لساني عن عدِّه أو شكره.

***

لصوص الأفراح

ضحكت «ملك» بارتباك قبل أن تحكي حكايتها، وتعثرت كلماتها في البداية كطفل صغير يحاول أن يخطو أولى خطواته:

– الزواج هو سُنّة الحياة، ولكن.. ما أسوأ أن تتزوج الفتاة برجل تعس بائس.. يفتقر إلى الأحلام، ويفتقر كذلك إلى الرجولة، ويصبح عبئًا بدلًا من أن يكون عونًا وسندًا.

ذلك النوع من الأزواج (الزوج العبء) هو من تزوجته، ولا أدّعي أنني ملاك لا يخطئ، لكن يبدو أن اختيار كل منَّا للآخر لم يكن صحيحًا أو موفقًا..

أتساءل الآن لماذا لم أفكر أكثر قبل أن أتزوجه؟! ألأنه القريب وابن العم الذي لا يتوقع منه الأذى؟!

يفجعنا الأذى حين يأتينا كخنجر مسموم غادر من مسافة قريبة، يذهلنا حتى إننا نترك نصله يغيب في أعماق قلوبنا ذاهلين، دون أن نتحرك أو ننبس ببنت شفة.

تعلمت أن الخناجر المسمومة الغادرة قد تأتي من الأقربين كما

تـأتي مـن الغربـاء، بـل إن وقعهـا مـن القريـب أشـد، وصـدق القائل: «احـذر عـدوك مـرَّة، واحـذر صديقـك ألـف مـرَّة، فلربـما انقلـب الصديـق فـكان أعلـم بالمـضرة».

اعترضـت أمـي عـلى هـذه الزيجـة في البدايـة لأننـي سـوف أسـكن في محافظـة بعيـدة، وأنـا ابنـة العاصمـة؛ التـي نشـأت في المدينـة الكبيرة بضوضائهـا وزحامهـا وبناياتهـا العالية.

لكن أبي طمأنني قائلًا بعد تردُّد:

- يكفي أنه ابن عمك، ولن يؤذيك يومًا.

كنـت صغـيرة في عامـي الثـاني بالجامعـة، تفتحـت عينـاي عليـه وتعلمـت أن أحبـه، فهـو الخطيـب وابـن العـم وزوج المسـتقبل، وأنـا الفتـاة ذات الضفائـر والأحـلام الورديـة والتـي تتطلـع شـوقًا لبنـاء حيـاة جديـدة مـع رجـل تحبـه وتـرى العـالم بعينيـه.

وتزوجنا..

وعـلى الكفـاف كنـا نعيـش في البدايـة؛ فظـروف زوجـي الماديـة كانـت متعثـرة ولم تـسر أمـور عملـه عـلى مـا يـرام.

لم يكـن هنـاك وجـه مقارنـة بـين حيـاتي المدللـة المرفهـة في بيـت أبي وحيـاتي مـع زوجـي، لكـن لا بـأس، مـا المشـكلة؟!

ألم نتعاهـد أن نبنـي حياتنـا سـويًّا، ونعيـش عـلى الحلـوة والمـرة كـما يقال؟!

مضت حياتنا هادئة رغم الصعاب، لم يكدرها إلا تأخر الإنجاب، وكان يعني ذهابنا إلى الأطباء في ذلك الوقت وإجراء الفحوصات والتحاليل الخاصة بالإنجاب أن نقتطع من قوت يومنا حرفيًّا ولأيام طويلة؛ لذا فقد أجلنا هذه الخطوة لبعض الوقت.

ولأنني بنت المدينة المدللة؛ كنت السبب المباشر في تأخُّر الإنجاب من وجهة نظر عائلة زوجي الكريمة (أقاربي)؛ إذ لو كنت أعلم كيف أقيم بيتا أو أرعى زوجًا لكنت عرفت ووعيت أن أهم ما يربط الزوج بزوجته - في مثل هذه القرية البعيدة على الأقل - هم الأطفال، حبذا لو كانوا أولادًا وليسوا بناتًا.

بدأت المشاكل وتسلَّل لصوصُ الأفراح إلى حياتنا ليسرقوا ما يستطيعون من سعادة وصفاء تضيء أرجاء منزلنا الهادئ.

مرت سنواتٌ وكثر القيل والقال وكان لزامًا علينا أن نقوم بهذه الخطوة الهامة التي تأجلت وتأخرت كثيرًا، حتى لو كان معنى هذا أن ننام بلا عشاء أو أن نقترض في آخر كل شهر أموالًا من هُنا وهناك.

ما أسوأ أن تكون حياتك مشاعًا بين العابرين والغرباء، يقحمون أنفسهم وآراءهم الشخصية في أدق ما يخصك بلا خجل أو تردد أو بقية من حياء.

وعند الطبيب اكتشفنا الحقيقة المُرة؛ إن مشكلة الإنجاب تتعلق بزوجي الحبيب، الذي يحتاج إلى علاج طويل الأمد

ومتابعة جادة من الأطباء، وفحوصات دورية للتأكد من فعالية العلاج.

كانت تنتظرنا مواجهة حاسمة مع الجماهير العائلية العريضة التي يسيطر عليها الفضول، وربما القليل من الترقب لإبداء الشماتة.

في بيت العائلة يُعَدُّ احتفاظك بأسرارك وخصوصياتك ضربًا من الجنون؛ إذ أن لسان حال الجميع أن كيف تعيش بيننا ولا تدعنا نحصي عليك أنفاسك وننقب في ثنايا نفسك في أي ساعة نحب من ليل أو نهار.

لكل قاعدة استثناء بالفعل، ولكن يبقى الاستثناءُ استثناء.

ولم تكن حياتي استثناء للأسف، لذلك داهمتنا العائلة الكريمة وعلى رأسهم عمي وزوجته فور دخولنا البيت.

كان السؤال محددًا مقتضبًا مُحَمَّلًا في طياته بما يدور بدواخل النفوس، وكان موجهًا لزوجي بصيغة واضحة:

– ها؟ ما الأخبار؟! هل كتبَ الطبيب لها علاجًا؟!

(لها؟!!!)

وبقدر دهشتي واستنكاري بقدر ما راعتني تلك النظرة التي اعتلت وجه زوجي حينذاك؛ نظرة مليئة بالانكسار وعينان تترقرق فيهما الدموع.

مَن قال إن القتل على الملأ كالقتل في زنزانة بعيدة منزوية لا يراك فيها العابرون؟!

إن القتل واحد لكن الألم لا يتساوى أبدًا في الحالتين، فعلى الملأ تسيل كرامتك وكبرياؤك وتموت ألف مرة قبل أن تجود بآخر ذَرة من روحك.

وضعت نفسي مكانه للحظات ولم أحتمل الأمر، ولا أدري متى ولا كيف نطقت بجملتي الحمقاء:

- نعم.. عندي مشكلة في الإنجاب قابلة للعلاج مع الوقت ومع الأدوية والمتابعة إن شاء الله، أستأذنكم سأصعد شقتي لأستريح.

وشعرت وأنا أدير ظهري بسهام نظراتهم القاتلة تكاد تقتلعني من مكاني.

***

هل كنت فتاة ساذجة حمقاء تدَّعي القوة؟!

ربما.

هل كنت امرأة قوية أبت إلا أن تدافع عن حياتها وزوجها مهما كلفها الأمر؟!

لا أعرف.

كل ما عرفته آنذاك أنني اخترت وأردت لهذه العلاقة أن تنجح وتستمر، وأن أبدأ بوضع خطة لإقناع زوجي بالانتقال من هذا المكان قبل أن تتسمم علاقتنا وحياتنا بالكامل.

وبقدر ما أحببت هذا المكان بمظاهر الطبيعة البكر الذي تحيطه، بقدر ما كرهت خصائصه وثقافته.

كنت أستيقظ كل يوم لأراقب - في غربتي- أسراب الطيور التي تحلِّق في وطنها الأكبر (السماء).

وما بين أسراب الطيور المحلِّقة، وبقايا ألحان صادرة من مذياع قديم يصدح بصوت أم كلثوم «يا صباح الخير ياللي معانا.. الكروان غنَّى وصحانا»، كنت أشحن طاقتي كل صباح، وأزيد رصيدي من السعادة المؤقتة التي آمل أن تكفي كلينا، زوجي وأنا.

لم تلتقِ نظراتنا وأعيننا لأيامٍ بعد إلقائي لتلك القنبلة في ساحة دارهم، ومن نافلة القول طبعًا أن الأقاويل قد تزايدت في الأيام التالية، وتصاعدَتْ المشكلات، واستغل لصوص السعادة الفرصة لإثارة القلاقل بيني وبين زوجي؛ ما بين محرِّضٍ له على الزواج بأخرى لتنجب له الولد الذي يحمل اسمه، وما بين متهم لي بالبجاحة والوقاحة وأنني (لا برحم ولا بخلِّي رحمة ربنا تنزل) أعوذ بالله من قولهم، وهل يمنع رحمة الله أحدًا من عباده الضعفاء؟!

وفي المرحلة التالية ضقت ذرعًا بكل شيء، بكل ما حولي ومَن حولي؛ ما بين اضطرار زوجي للعب دور الضحية وكم أنه متمسك بي رغم كل شيء وأيّ شيء، وما بين مواجهتي للمواقف السخيفة والعبارات المسيئة كل يوم.

وزوجي..!

أتـراه متمسـك بي حقًّـا؟! في كل الظـروف وعلى كل الأحـوال؟! أم إنَّ مـا نمـر بـه فقـط هـو مـا أجـبر كلًّا منَّـا عـلى لعب هـذا الـدور؟!

لمـاذا أشـعر أنـه قـد بـدأ يصـدق هـذه الكذبـة الخرقـاء التـي اختلقتهـا بنفـسي أمامـه وأجبرتـه أن يسـايرها؟

أتـراه يسـتمتع بتنهيـدة إشـفاق هنـا ومصمصـة شـفاه هنـاك؟! ناهيـك عـن عبـارات أمـه التـي ترددهـا عـلى مسـامعنا غـداة كل يوم:

– «حـسرة قلبـي عليـك يـا ابنـي، خمـس سـنين زواج لا عيّـل ولا تيّـل، هتفضـل كـده لحـد إمتـى؟»

ثم تردف بحسم:

– «لو كان العيب منك لتركتك وتزوجت منذ زمن».

كان يتضايـق ويُسـكت أمـه في البدايـة، لكـن بعـد تكـرار كلامهـا يومًـا بعـد يـوم بـدا وكأنـه يسـتمتع بلعـب هـذا الـدور..

دور الـزوج الـوفي الـذي يضحـي مـن أجـل زوجتـه العاقـر، ويتمسـك بهـا رغـم علَّتِهـا وعيبهـا.

وفي نفـس الوقـت فأنـا الأرض البـور، الجدبـاء التـي لا يرويهـا مطـر..

أنـا التـي تتزايـد المشـادات والمشـاجرات معـي وأتلقـى سـهام كلماتهـم السـامة يومًـا بعـد يـوم.

«سيحاسبك الله على ظُلمك لهذا المسكين».

« أنـتِ بـك علـة، فارقـي ولدنـا أو دعيـه يتـزوج لعـل الله يرحمـك ويرزقـك مـا حرمـك منـه».

«مَن لا يرحم لا يُرحَم»

«لا بُدَّ أنه عقاب من الله حل بك بسبب سوء سريرتك»..

الكثير والكثير من عبارات هذه أهونها..

يرى كثير من الناس الحق والباطل بعين أهوائهم الشخصية، وبكل همة واجتهاد يوظفون كلمات الحق والعدل ويطوعونها حسب ما يريدون، وهم في الحكم على غيرهم قضاة جلَّادون، وفي الحكم على أنفسهم وعلى عيوبهم آباء وأمهات؛ يرون كل عيب ميزة، وكل جريمة مجرد خطأ غير مقصود..

ولماذا ألومهم وأنا من ظلمت نفسي أولا؟!

أكنت قوية وقتها وأردت أن أنقذ زواجي؟! حسنًا، فلأنقذه الآن ولنخرج من هذه البقعة البغيضة بلا عودة..

- «لننتقل إلى القاهرة.. إن مستقبلنا أفضل هناك».

ردَّ زوجي باستنكار:

- «القاهرة؟! وماذا نفعل هناك؟!»

- «نعمل ونجتهد ونبني حياتنا، وعندما يستقر الحال في القاهرة نقيم مشروعًا صغيرًا و...

قاطعني زوجي ضاحكًا:

- حسبُك حسبُك.. هل نقلتِنا إلى القاهرة، وألحقتِ كلًّا منا بوظيفة والآن تتمادين في أحلام اليقظة فتفتتحين لنا مشروعًا أيضًا؟! متى أصبَحْتِ سيدة الأعمال المهمة تلك؟

تنهدتُ وأنا أحاول ألا أنفجر بكل ما فيّ من ضغوط وبكل ما بنفسي من آثار المعارك وأنا أجيبه بهدوء وصبر، ضاغطة على كل حرف من حروف كلماتي:

- لقد وجدت لكلينا وظائف في القاهرة بالفعل، كما أن هناك شقة مناسبة معروضة للإيجار بالقرب من منزل والدي..

وقبل أن يستوعب الأمر عاجلته قائلة:

- تذكر أن عملك هنا غير ثابت وليس به أي ميزة، ورغم مرور السنوات ما زلنا نعيش على الكفاف.

والتقت عيناي المليئتان بالدموع بعينيه الحائرتين:

- لم يكن هذا ما خططنا له أبدًا.

ردَّ بصوت مبحوح:

- لم أرك تتذمرين يومًا من قبل.

بدمعة شاردة هربت من عيني أجبته:

- لا أتذمر، أنا أسعى لتغيير واقع ليرضيني.. لطالما كنت جيشك الوحيد وكنتَ سندي في هذا العالم، ما الذي يمنعنا من تحقيق أحلام أعلم وتعلم جيدًا أننا قادران على تحقيقها.

ثم همست بكل الألم الذي يعتمل بداخل صدري:

- لا أريد أن أعيش هنا للأبد.

- حبيبتي، لقد تحملت الكثير طوال هذه السنوات، فما الجديد إذًا؟!

- الجديد يا زوجي الحبيب أن تحملي في البداية كان فضلا، تحول مع الوقت ومرور السنوات إلى (فَرض)، أمَا وقد تحول الفضل فصار فرضًا، وصرت أعايش واقعًا يؤذيني ولا أرضاه يوميًّا، فأنا أرفض المزيد من التحمل.. لقد اكتفيت.

رفعت وجهًا غارقًا بدموع أثقلت روحي لسنوات:

- كل ما أريده هو أنت وأنا وأحلامنا فقط، هناك في مكان بعيد عن هنا حيث يصير تحقيق الأحلام أمرًا ممكنًا، فهل توافق؟!

ووافق!

***

لا غربة في القاهرة..

إن شوارعها الواسعة وزحامها، وأصوات الباعة الجائلين لا يترك لك الفرصة لتفكر هل أنت بائس أم سعيد.!

أنت تتحرك مع أمواج البشر المتدفقة سيرًا في شوارعها صباحًا وتعود معهم في المساء محمَّلًا بإرهاق يوم فائت، وممتلئًا بأحلام السعادة التي ربما قد تأتي مع يوم جديد..

في القاهرة بدأنا ببناء الحياة التي لطالما حلمنا بها.

عملنا بجِد كما لم نفعل من قبل واجتهدنا، وبدا أن شظف العيش استعد ململمًا أسماله البالية أخيرًا ليفارقنا..

كنت أحث زوجي على العمل وأساعده ببذل قصارى

جهدي؛ كي نودع حياتنا السابقة البائسة، ونستعد لبدء حياة جديدة ننجب فيها أول أبنائنا في ظروف مادية ميسورة بعد رحلة العلاج المنشودة التي أصبحت حلمًا ممكنًا الآن..

بدأ زوجي رحلة العلاج، وبدأتُ أنا رحلة أخرى لا تقلّ أهمية.

قمت بعمل دراسة جدوى بمساعدة بعض الأقارب والمعارف استعدادًا لفتح مطعم صغير يكون بداية لانطلاقنا في عالم البيزنس اللامع، ولأنه كان حُلمًا عسيرًا عصيًّا بعض الشيء فقد استدنت مبلغًا كبيرًا من المال بالإضافة إلى بعض المدخرات التي كنت قد نجحت في جمعها منذ انتقلنا إلى القاهرة.

وبعد عشاء رومانسي على ضوء الشموع؛ في بيتنا الدافئ رغم اتساعه، أطلعت زوجي على فكرتي التي صادفت هوىً في نفسه وفرح بها كثيرًا نظرًا لخبرته السابقة بالعمل في هذا المجال أثناء دراسته في الجامعة، وفرح أكثر بالمبلغ الكبير الذي استطعت تدبيره واستدانته واجتهدت في جمعه من أجله، بل من أجلنا معًا..

وظللت أفكر في الأيام التالية..

ماذا لو تحققت الأحلام؟!

ماذا لو نجحنا في إدارة هذا المشروع واشترينا الشقة التي نسكنها -عتبة السعد - بدلًا من عقد الإيجار المؤقت البغيض؛

الـذي يجعلـك تشـعر بأنـك ضيـف مؤقـت ثقيـل غـير مرغـوب فيـه عـلى المـدى البعيـد مهـما بلـغ مكوثـك ومهـما طالـت إقامتـك؟!

مـاذا لـو تحققـت الأحـلام فأنجبنـا ولـدًا وبنتًـا وسـميناهما باسـل وياسـمين كـما كنـا نحلـم ونخطـط دائـمًا؟!

ماذا لو -فقط- تتحقق الأحلام؟!

***

وفي الرسـالة الصوتيـة التاليـة لصديقـة طفولتنـا وصبانـا (ملـك)؛ بـدا صوتهـا وكأنـه يـأتي مـن أعـماق بئـرٍ سـحيقة.

تبدلـت نـبرة صوتهـا مـن القـوة والعـزم إلى شيء أشـبه بمقطـورة قديمـة تجـر الحـروف جـرًّا لتنطـق بأحـداث لم تتوقعهـا يومـا ولم تضعهـا في حسـبانها حـين قاومـت وصارعـت العـالم مـن أجـل أحلامهـا..

تغيرت (ملك) كثيرًا..

لم تعـد تلـك الطفلـة التـي تتقافـز وترفـل في زِي المدرسـة الواسـع دائـمًا ذي الملمـس الخشـن.

وكذلـك لم تعـد تلـك الصبيـة نفسـها التـي تفتـح ذراعيهـا للعـالم وتغنـي بمـرح كل صبـاح جامعـة إيانـا حولهـا في دائـرة كبـيرة قبـل طابـور الصبـاح.

ماذا كانت تريد؟!

زوجًا محبًّا عطوفًا وبيتًا هادئًا وحياة كريمة؟!

أشياء بسيطة يحلم بها آلاف مؤلفة من النساء حول العالم كل يوم.

كانت تنكر دائمًا علينا في المدرسة الثانوية عندما نردد بيت الشعر الشهير:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

وتردد في عزم وإصرار:

تجري الرياح كما تجري سفينتنا نحن الرياح ونحن البحر والسفن

إن الذي يرتجـــي شيئًا بهمته يلقاه لو حاربته الإنـــس والجن

فاقصد إلى قمم الأشياء تدركها تجري الرياح كما أرادت لها السفن

تفانت (ملك) في صناعة الواقع الذي تريد وبدا أنها قد بدأت بتحقيقه بالفعل، ماذا حدث ليخرج صوتها حزينًا محشرجًا مبحوحًا بهذا الشكل؟!

ترى ماذا فقدت؟!

يتعلق الأمر دائمًا بالفقد..

فقد عزيز..

فقد أب

أم

زوج

ابن

صديق

فقد الشغف..

فقد معنى..

فقد حلم..

فقد الرغبة في الحياة..

ترى هل خابت آمالها بعد كل انتصاراتها في المبارزات الشعرية القديمة التي خاضتها يومًا؟!

***

ربما استغرقتني الحياة أو انشغلت أكثر مما ينبغي بتحقيق الأحلام.

ربما لم تتضح لي الرؤية لأنظر ورائي؛ إلى تسع سنوات مضت من زواجي.

ربما لم نفكر بتقييم حياتنا كما كنا نفكر دائمًا بتقييم أرباحنا وخسائرنا كل فترة.

لا أدري كيف ولا متى حدث كل هذا التغيير.

كل ما أعرفه أنني أفقت فجأة، وكنت أتمنى لو لم أفعل.

في صبيحة ذلك اليوم أصر زوجي على اصطحابي لذلك المول الشهير لتناول الإفطار سويًّا وارتشاف قهوة الصباح معًا، ثم نتناقش في أمور العمل.

يبدو كل شيء طبيعي وهادئ، حتى عندما افترقنا لأشتري أشياء للبيت ويذهب هو لإلقاء التحية على أصدقائه الذين

صادفناهم هناك، لم أكن أعرف أن جدران عالمي على وشك السقوط منهارة فوق رأسي.

لم أجد ما ذهبت لشرائه فعدت إلى حيث تركته واقفًا مع صديقيه يمازحهما ويضحكون جميعًا بصوت مرتفع، لا بُدَّ أنهم مستغرقون في حديثهم المعتاد عن ذكريات طفولتهم وصباهم.

اقتربت مسرعة وأنا أحث الخطى كي ألفت انتباههم لمدى ارتفاع أصواتهم، فهالني ما سمعت..

كان صديقا زوجي في مواجهتي وهو يولينى ظهره. لم يكن يراني، وكنت أحث الخطى مسرعة لأخبره بوصولي ولألقي تحية سريعة على صديقيه كالمعتاد.

- «..... والحق أنها لم تعد تناسب مكانتي ومستواي الاجتماعي، كما أنها لا تنجب -كما تعرفون -، وقد أباح لي الشرع الزواج مثنى وثلاث ورباع، هذا أقل حق من حقوقي، وقد نويت الزواج على كل حال».

تجمدت خطواتي وانسحبت الدماء من أطرافي؛ كما انكمشت ابتسامات وضحكات صديقيه عندما انتبها لقدومي، وفي ارتياع نظراتهما خلف ظهره أدرك زوجي المبجل أنني وراءه.

وفي ذات اللحظة التي التقت فيها نظرات ذهولي بنظراته الزائغة وابتسامته الشاحبة أظلم العالم أمام عيني..

وفقدتُ الوعي أخيرًا..

***

لا دفء في القاهرة..

الكل مشغول ولا أحد يبالي بأحزانك وهمومك..

فإما أن تداوي جراحك وتطبب روحك بنفسك وإما أن يدهسك قطار الحياة السريع غير عابئ بك ولا بما تعاني.

كنت أبتسم بمرارة وأبكي بحرقة، ثم أخاطب نفسي وأقهقه بجنون!!

أحببتِ بكل نفسك؟

تستحقين إذًا..

نعم، تستحقين كل زفرة ألم، وحُرقة قلب ولوعة ومرارة..

حمقاء..

لماذا كذبت لحمايته؟ تلك الكذبة التي صدقها وآمن بها حتى غدت واقعًا مُرًّا يصعب إنكاره.

هل كنت تتوقعين أن يرد لك الجميل أضعافًا مضاعفة، فيهبك الحب والمال والبنين والبنات؟!

من قال إن الحقيقة واضحة والكذب معقد؟!

الكذب أبسط ما يكون، والحقيقة أمَرُّ ما تكون وأكثر تعقيدًا، فهي متعلقة بمصدر الأمراض الظاهرة والباطنة على أرض هذا الكون (الإنسان).

تركته وذهبت ولم أنظر أبدًا إلى الوراء، فالمرأة إذا أحبت بكل نفسها، ثم خذلت تتحول إلى كائن آخر.. كائن مسلَّح ومُحصَّن

بمناعة قوية ضد الغدر والخداع، بل وضد كافة المشاعر التي قد تؤثر في قرارات حياته.

والعجيب أنه بعد فترة الانكسار المعتادة بعد الانفصال، عادت حياتي لتزدهر من جديد، حتى إنني أتعجب أحيانًا أنني كنت أحبه يومًا!

وبعد هذه الواقعة بسنوات تزوج وتزوجت..

تزوج بمن تشبهه وتليق به، وأيقنت أن الطيور على أشكالها تقع.

عاد إليَّ مرارًا يطلب فرصة أخرى. يطلب أن أكون زوجته من جديد، زوجته الجديدة، ولم أكلف نفسي حتى عناء الرد.

أما أنا فقد تزوجت، بقرار من قلبي وعقلي معًا، وكان ثمرة ذلك طفل جميل أراق ماء وجه شخص كان يدَّعي أنه زوج وفيٌّ، وأن زوجته عاقر!!

***

هـــــــــدى

«أحببتــه فأخبرتــه وأطلعتــه عــلى حقيقــة مشــاعري تجاهــه وتزوجنــا، فهــل تعتقــدون أن قصتــي حزينــة أم ســعيدة؟!»

هكــذا اســتهلَّت «هــدى» كلامهــا وســط صيحــات الرســائل المســتنكرة عــلى تطبيــق المحادثــات الشــهير واتســاب، والتــي تــكاد تتحــول إلى شــهقات مســموعة، مــا بــين رســائل مادحــة لجرأتهــا حاســدة إياهــا عليهــا، ومــا بــين أخــرى مســتنكرة لفكــرة الكشــف عــن مشــاعرك لرجــل، ومــا بــين رســائل متعجبــة مــن زواجهــما بالنهايــة؛ متوقعــة أنــه لا بُــدَّ أن هــذه الزيجــة قــد انتهــت بالطــلاق أو عــلى الأقــل بحيــاة مليئــة بالخلافــات الزوجيــة؛ إذ أنَّ العلاقــة بــين الرجــل والمــرأة شــائكة ولهــا قوانــين أزليَّــة تحكمهــا، فالرجــل يريــد أن يكــون - أبــدًا- ذلــك الصيــاد الــذي يطــارد فريســته ليوقعهــا في حبائــل حبــه وعندمــا تنعكــس الأدوار لا تســتقيم الحيــاة.

كان هــذا رأيُ أحــلام لكــن بثينــة خالفَتْهــا الــرأي قائلــة إنــه ليــس مــن العيــب أن تكشــف الفتــاة عــن مشــاعرها كالرجــل تمامًــا، إنــما

هي فقط القيود البالية والتقاليد العتيقة التي تربَّيْنا عليها، والتي تتوعد المرأة وتسلبها كل الحقوق وتمنحها للرجل.

تابعتُ المناقشة المشتعلة بين الفريقين وأنا ألعن في سري من فتح باب المناقشة في المجموعة أثناء رواية الفتيات لقصصهن لأكتشف أنه - أنا-، أخبرتهم بلطفٍ أن الأفضل تأجيل التعليق لحين انتهاء هدى من سرد قصتها، وأنه ستتاح لنا الفرصة لمناقشتها فيما بعد منعًا للتشتت.

عادت هدى لسرد قصتها فأرسلت مقطعًا صوتيًّا طويلًا، ترى هل بقصتها ذلك الكمّ الكبير من الأحداث؟، أم هي - فقط- تريد أن تصبح هدى (المثيرة للجدل) بعد أن استحقت بجدارة لقب (هدى الهادئة) لسنوات طويلة؟!

استمعت إلى صوتها الهادئ الذي تطل من بين طياته ابتسامة واثقة، قالت:

«كان قريبي وكنت أميل إليه منذ تفتحت عيناي على هذه الدنيا، وبعد وفاة أبي المفاجئة وفجيعتي فيه؛ شعرت فجأة بأنني فقدت السند والأمان، كريشة في مهب الريح كنت.

أنكرت الأمر ورفضت الاعتراف بوفاة أبي الحبيب الذي كانت روحي متعلقة به كثيرًا، وعندما أتى قريبي (مالك) مع أبويه لمواساتنا ولتقديم واجب العزاء، بدموع متحجرة ذهبت إليه منتهزة فرصة انشغال أبويه بتعزية أمي وإخوتي قائلة بلا مقدمات:

– لقد توفى أبي، أحَبّ الناس إلى قلبي في هذا العالم، ومن بعد وفاته أشعر بالضياع، وليس أحب إلى قلبي بعد أبي منك، ولن أجد لنفسي زوجًا أشعر معه بالطمأنينة والأمان أفضل منك، أنا أحبك وأريدك زوجًا لي فإن وافق ذلك هوىً في نفسك أخبرني في الاجتماع القادم للعائلة.

حتى الآن لا أعرف كيف فعلتها، ربما كنت يائسة أكثر مما ينبغي، وربما غلب حبي له خجلي المعتاد، لكن الشيء الأكيد هو أنني أكره الأمور المعلَّقة والكلام الذي يسبح في الفراغ حولنا صامتًا ولا يقال.

كنت أشعر أحيانًا بنظراته تريد أن تخبرني بشيءٍ ما، وأحيانًا أخرى أشعر أنه لا يراني ولا يشعر بي.

ولأنني أكره الأمور المعلَّقة فقد كنت أريد أن أسأل وأسأل وأسأل، ولأنه أدرك أخيرًا ما أريده فقد لزم الصمت وتجنب الأمر برمته بعد نظرات الدهشة والذهول التي استقبل بهما الأمر.

كنت أعرف أن الحقيقة مُرَّة، وأن للمصارحة والمكاشفة عيوبًا كثيرة، ولكنني لم أندم على إطلاعي إياه على حقيقة مشاعري تجاهه، بل كنت أعتب عليه التزامه الصمت وتقيد لسانه الطليق دائمًا نظرًا لتعقيد الموقف.

لم أرد إلا الكلام ولم يرد سوى الصمت.

كانت الطبول تدق في قلبي والمطارق تهوي على رأسي ولا أكاد أرى أمامي، أخبرته ما أريد ثم انصرفت مسرعة متجنبة أي إهانة واردة أو رد صادم محتمل.

وفي اليوم الموعود وقفت في شرفة بيت العائلة منتظرة قدومه على جمر من الصبر والشوق، وحين لمحته قادمًا من بعيد اندفعت مسرعة مهرولة إليه؛ لألتقي به وحيدًا بعيدًا عن أعين العائلة والأقارب.

وفي كل خطوة كنت أسمع طبول قلبي تدق حتى كادت تصمُّ أذناي.

- «إذًا»؟!

قلتها كأنني أكمل الحوار الذي بدأته من قبل، كأن أسابيع لم تمض وكأنه كان معي حين أفكر وأتخيل ردات فعل مختلفة له كل يوم.

ابتسم قائلًا:

- يقول الناس «صباح الخير» أولًا.

رباه.! كم أحب ابتسامته، تضيء شموسًا صغيرة بقلبي وتنعكس على جدار روحي فتلتمع عيناي، وكأن هناك تيارًا كهربيًّا يَسري بيننا كلما تواصلنا فتزيد التماعة عينيّ وتتسع ابتسامة عينيه، ترى كيف يفعلها؟ كيف يبتسم المرء بعينيه؟! لكن هذا ليس موضوعنا الآن، تخطت لهفتي لمعرفة رده كل حد فعاجلته:

- صباح الخير، هل فكرت فيما أخبرتك به؟

- نعم.

- ثم؟!

-تعرفين أنه ما زال لديَّ مشوار طويل، فأنا حديث التخرج و...

- نعم أعرف، لا نتكلم عن ظروفك الآن بل عن مشاعرك.

رفع عينيه المبتسمتين نحوي قائلًا:

- المشاعر متبادلة يا (هدى) أشعر تجاهك مثلما تشعرين، لكن الظروف...

أقاطعه:

- أتحمل ظروفك وأنتظرك العمر كله لو كنت تبادلني نفس الشعور.

وأدرت ظهري ودلفت مسرعة إلى الداخل، تاركة أقاربنا يتلقونه بالحفاوة والترحاب.

اختلط صوت الطبول برقص الطواويس في قلبي، وصار كياني يعزف أجمل لحن عرفته البشرية أبدًا، لحن الحب.

لم أكن متوهمة، كان يحبني لكن منعته بساطة ظروفه من البوح، وربما لم يكن يحبني بل ربما لم يفكر في الارتباط من الأساس، ليس هذا مهمًا، قررت أن أكون سعيدة برده مهما كان ما وراءه، فالسعادة قرار كما أن الحزن والتعاسة قرار أيضًا، وأنا

الآن أرى طيور السعادة تحلِّق في سمائي؛ فأنا أخيرًا سأحصل على الرجل الذي أحب.

وفي سكرة إحساسي بالسعادة لم أنتبه ولم أفكر في موقف الآخرين سواء من الأقارب أو كبار العائلة، ترى هل سيسمحون لهذه الطيور أن تحلِّق أم سيحاولون قتلها؟!

وحاولوا قتلها، لكن هيهات!!

***

لعلكم تتساءلون كيف تحولت تلك الفتاة الهادئة الخجول في مدرستنا الثانوية لفتاة جريئة تصر على البوح بكل ما بداخلها بهذا الشكل، والحقيقة أنني قد فقدت الكثير بسبب الكتمان.

نعم، فقدت الكثير حين لم أخبر أبي كم أحبه وكم أشتاق لوجوده بيننا حين يغيب، وحين التزمت الصمت عندما حددت لي العائلة الكلية المناسبة لي وقت كتابة الرغبات وإرسالها لمكتب التنسيق.

لماذا تصر مجتمعاتنا العربية على أن الكتمان ميزة وقوة للرجل، وحياء ووقار للفتاة؟!

لماذا لا يكون الرجل قويًّا ويبوح بما في نفسه ببساطة، وتكون البنت حييّة وتستطيع الإفصاح عما يدور بداخلها من مشاعر إنسانية في نفس الوقت؟!

لماذا تقيم مجتمعاتنا عداءً صريحًا بين القوة وسائر المشاعر الإنسانية كالحزن والبكاء والبوح؟!

حتى الرُّسُل والأنبياء بكوا وأفصحوا عن مشاعرهم الإنسانية، ألم يبكِ نبيُّنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم حين توفي ولده إبراهيم؟!

ألم يعصف الحزن بنفسه وقال: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون؟!

أيقنت وقتها أهمية أن أخبر أمي كلَّ صباح أنني أحبها وأقدِّر ما تفعل من أجلنا، كما أدركت أن أقول «لا» لكل ما لا أحبه، و «نعم، أريد» لكل ما يعجبني.

عندها تغيرت شخصيتي وصرت تلك الفتاة العنيدة التي تعبِّر عن رأيها وعمَّا تريد بكل قوة ما دامت لا تؤذي أحدًا، ولا تسيئ لأحد.

خيِّلَ إليَّ أنني أرى ابتسامتها وهي تستطرد:

- نعم أنا المجنونة التي أحبت وباحت بمشاعرها؛ بل وعرضت عليه الزواج أيضًا و....

واستطردت وابتسامتها تتسع وتتسع حتى تغرق نبرة صوتها:

- ولم أندم أبدًا.

***

قـــوانيـن الحيـــاة

عندمـا تـرى أن حياتـك سـعيدة، تسـير بسلاسـة وراحـة مطلقـة عليـك أن تقلـق؛ لأن هـذه ليسـت قوانـين الحيـاة..

تذكَّـروا أننـا نعيـش في الدنيـا لا في الجنـة، حيـث الكبـد والنصـب، مـع قليـل مـن السـعادة لترطـب علينـا هجـير الحيـاة.

كان مـن الطبيعـي والمتوقـع أن ترفـض العائلـة زواجـي مـن مالـك؛ عـلى إثـر زواج سـابق لم يكتـب لـه النجـاح وكان سـببًا في وقـوع خـلاف كبـير بـين كبـار أفـراد العائلـة قبـل سـنوات.

رفضـت أمـي وعنفتنـي؛ حتـى إنهـا لجـأت إلى ضربي حـين فشـلت في إقناعـي، ورفـض أبـو مالـك الـذي كان في منزلـة خـالي وأخـبر ابنـه بـأن «زواج القرايـب مصايـب»، وأنـه ليـس لديـه أي اسـتعداد لأن يخـسر عائلتـه بسـبب عنـاده.

اخترنـا الطريـق الصعـب وصبرنـا حتـى هـدأت مشـاعرهم، وتحـدَّث كلٌّ منَّـا مـع أسرتـه بالهـدوء والإقنـاع تـارة، وبالقَسَـم بأغلـظ الأيـمان بأننـا لـن يـرضى كلٌّ منـا بغـير الآخـر زوجًـا وشريـكًا للحيـاة تـارة أخـرى.

وفي النهاية كلمت خالي وأقسمت أمامه إنني سأتزوج ابنه ولن أرضى عنه بديلًا، عجيبة هي الطاقة والإصرار والمثابرة النابعة عن الحب، أليس كذلك؟!

بعد كثير من المحاولات رضخت عائلتنا للأمر مشددة على أن نكون على قدر هذه المسؤولية، وأن نحافظ على بيتنا وإلا...!

وفي الواقع لم نكن نحتاج إلى وصاياهم، فهل يُوصَّى حريص؟

وتحققت الأماني، وأقيمت الأفراح بعد عقبات وصعاب معتادة في مثل تلك الظروف.

كلُّ ما أستطيع قوله أنني أحببت واخترت رجلًا عظيمًا، كان مالك أجمل من كل أحلامي.

عشنا حياة سعيدة هانئة، ومرت السنوات سريعة؛ ورزقَنا الله بالبنين والبنات، ولأننا لا نشعر بمرور الوقت في قرب من نحب؛ فقد مرَّ علينا قرابة العشر سنوات وكأنهم لمح البصر.

لم تكن الحياة دائمًا وردية، كانت تضيق الأرزاق وتتسع وتتبدل بنا أحوال الحياة ونغضب أحيانًا ونثور، ثم ما نلبث أن نصفو من جديد كما يحدث في أي بيت، غير أن الاختلاف الوحيد أن كلا منَّا لم يكن يستطيع أن يتخيل حياته بعيدًا عن الآخر حتى في أوج الخلاف وفي وقت الغضب.

كانت علاقتنا بعائلتنا رائعة، لا سيما وقد تأكدوا من حُسن اختيارنا ورأوا بأعينهم ثمرة تمسُّك كلٍّ منَّا بالآخر.

تذكرون ما أخبرتكم به عن قوانين الحياة؟! وكيف أن الحياة لا تصفو لأحد، وإذا صفت فقد انتهت؟!

نعم، لم يدم الأمر كثيرًا للأسف، وتوفي زوجي الحبيب في حادث غادر.

لن أحكي لكم عن لوعتي وصدمتي وذهولي لفقد رفيق العمر وشريك الحياة، لأنني ببساطة لم تكن لدي رفاهية الحزن، كان سندنا بعد الله قد ذهب للقاء ربه، ونحن به لاحقون عاجلًا أو آجلًا، ولي أطفال فزعون، يرون فيَّ القوة والدفء والسند الوحيد.

لكم تمنيت كثيرًا أن أصرخ وأولول علَّ الصرخات والزفرات تخفف من لهيب قلبي المحترق.

كم من مرة حلمت بأنني أصرخ وأصرخ في صحراء قاحلة حتى تنقطع أنفاسي.

إنه لأمر شديد الصعوبة أن تحمل أحزانك الثقيلة على ظهرك وتسير بها هائمًا على وجهك في دروب الحياة.

لم أنفِّس عن حزني يومًا، لم أعبِّر ولو عن عُشر ما في قلبي من حزن، والعجيب أنني أكثر من تعجب لذلك، فلقد عهدت نفسي تلك الفتاة التي تبوح وتعبر عن كل ما تشعر بكل قوة.

وهنت القوة وذهبت الرغبة بالحياة رغم محاولاتي الصمود من أجل الصغار، وبدا للجميع أنني سألحق بزوجي بعد فترة وجيزة.

إلا أنـه ورغـم كبـد الحيـاة وآلامهـا يسـخِّر الله لنـا مـا يعيننـا عـلى تحمُّـل مـا نـرى مـن نصـب فيهـا. هـل تصدقـون أني اكتشـفت أننـي حامـل بعـد وفـاة زوجـي بأيـام معـدودة؟!!

***

هديـــة متـــأخرة

بقـدر مـا كان الأمـر مأسـاويًا بالنسـبة لعائلتـي، بقـدر مـا نـزل بـردًا وسـلامًا عـلى قلبـي.

اعتبرتهـا رسـالة مـن الله بـأن أصمـد مـن جديـدٍ، كـما اعتبرتهـا هديـة مـن زوجـي، هديـة سـيتأخر موعـد اسـتلامها إلى نحـو ثمانيـة أشـهر.

فرحـت بالهديـة، وشـكرت الله عـلى نعمائـه، وعُـدت رويـدا رويـدا إلى حيـاتي أهتـم بأطفـالي وأرعاهـم وأعمـل مـن البيـت عازمـة عـلى الخـروج إلى العمـل بشـكل مكثـف بعـد اسـتقرار الحمـل، حتـى لا أكـون عبئًـا عـلى أحـد مـن أفـراد عائلتـي رغـم أنهـم -مشـكورون جميعًـا- وقفـوا بجانبـي حتـى بـدأت أسـتعيد عافيتـي مـن جديـد.

رزقنـي الله بابنـة جميلـة محبوبـة مـن الجميـع، أصبحـت قـرة عينـي وسـلواي.

كانـت تحمـل ملامـح أبيهـا وطيبتـه وابتسـامة عينيـه، وجسـارة أمهـا وقوتهـا، بالإضافـة إلى غمازتـين جميلتـين زاداهـا سـحرًا وجمـالًا.

وتمر السنوات وأفتتح مشروعًا خاصًا بي وينجح نجاحًا باهرًا، وأتوسع لأفتح فروعًا أخرى في أكثر من مدينة، وكان رزق أولادي واسعًا بفضل الله، وترددت في رأسي الآية الكريمة: **«وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ»**

ومن العجيب أن العائلة اجتمعت مرة أخرى بعد عام، يلحون عليَّ بالزواج من أخو زوجي، رفضت بحزم، شاكرة إياهم على اهتمامهم بنا ورعايتهم لنا.

كان خالي أبو مالك قد توفي قبل زمن بعيد، تذكرته وقتها وابتسمت، ثم ما لبثت ابتسامتي أن تحولت إلى ضحكات هيستيرية مجلجلة؛ كان يرفض أن أتزوج من ولده، ترى كيف كان سيكون موقفه لو علم بأنني كدت أكون زوجة ولده الآخر؟!

***

فريدة

بكيت بكاء مرًّا وأنا أستمع إلى قصص صديقاتي وحكاياتهن، وصرت في حالة نفسية يرثى لها.

فعلى الرغم من أنه ليس لدي قصة كبيرة مؤثرة كقصصهن - اللهم إلا قصة الكفاح المعتادة والنجاح في العمل الذي أجيده- إلا أنني كنت أبكي بحرقة طفولتنا وأحلامنا الوردية وضحكاتنا المجلجلة التي كانت تجلب علينا سخط المدرسات ومشرفي الأدوار.

كيف تحولت كل منهن إلى كتلة من الصبر، لتتجاوز كل هذا القدر من الألم؟!

لماذا تؤثر بي قصصهن إلى هذا الحد رغم أن هناك قصصًا أصعب منها بكثير تحدث لكثير من البشر؟!

أظنني أبكي نفسي وأرثي سنوات عمرنا التي مضت دون أن نشعر.

لم أحتمل أن أكتب باقي القصص في مذكراتي، ربما سأحكي لكم عنها لاحقًا.

ربما أحكي لكم عن «نورا» التي فقدت ابنتها في سن صغيرة، أو أحكي لكم عن «سها» التي سافرت إلى أوروبا لتذوق مرارة الغربة مرة، ومرارة الانفصال والعيش بأبنائها وحيدة في بلد غريب مرة أخرى.

ربما أحكي لكم عن «أروى» التي فقدت في غربتها أحب إخوتها إليها ولم تستطع أن تتواجد مع عائلتها في أقسى الظروف.

أو عن علياء وقصة أختها الشهيرة التي كنا نتحاكى بها، والتي لا بُدَّ أن أفرد لها لقاءً خاصًا.

ربما أحكي لكم عمن كان ابتلاؤها متمثلًا في عدم الإنجاب أو تأخر الزواج أو قسوة الأقارب أو فقد الأحبة.

ربما أحكي لكم كذلك عن صديقتي أسماء التي تغير شيء كبير في أعماقها بفقد والدتها.

الحكايات والقصص كثيرة، ربما أكثر من قدرتي على الحكي.

كنت قد سمعت الكثير، لكنني اكتفيت، وكففت عن الكتابة وألقيت الهاتف بعيدًا حتى أستعيد نفسي مرة أخرى، وأنسى أمر طفولتي المزعومة تلك.

كانت سذاجة لا براءة، لم نكن ندري ماذا ينتظرنا فما الجميل في ذلك؟!

وفي اليوم التالي هاتفتني «ديما».

كانت ديما صديقتي منذ المرحلة الابتدائية، وهي سُورية

من جهة الأم، مصرية من جهة الأب، وكانت من مشاهير المدرسة بسبب حكاياتها عن سوريا، وإحضارها لبعض الأطباق والوجبات السورية في المدرسة فكانت محبوبة، ربما لأنها دائمًا ما فتحت لنا نافذة على ثقافات أخرى.

كنا صغارًا يملأنا الفضول ونحن نستمع إلى حكايات تلك البلاد البعيدة التي يغطيها الثلج في الشتاء، ونطالع - مبهورين- صور صديقتنا ديما وأقاربها السوريين الذين حضر بعضهم إلى الدراسة في مصر لسنوات، يلعبون ويقذفون بعضهم بعضًا بكرات الثلج.

أخبرتني ديما بأن هناك قصة ينبغي ألا تفوتني، فهي ترى أنها قصة لا بُدَّ أن يرويها أحدهم يومًا، فأخبرتها أنني اكتفيت من القصص ولن أستطيع تدوين قصة أخرى في هذه الفترة على الأقل.

لكنها أصرت وأخبرتني بأنني لا أعرف قريبها صاحب القصة ولم أرَه حتى قبل ذلك؛ وبالتالي فلن أتأثر بقصته نفس تأثري بقصص صديقاتي، بل سأخرج بقصة جديدة جديرة بأن تروى.

وافقت في النهاية مدفوعة بفضولي، فأعطتني بيانات حسابه على برنامج سكايب وأخبرتني بموعد اللقاء في اليوم التالي، لتتركني قلقة من سماع أي آلام بشرية أخرى.

فرار

طالعتني صورته عبر شاشة الحاسوب مطلًا بابتسامة خفيفة وصوت هادئ.

شاب سوري في منتصف العشرينيات، مليح الوجه رياضي البنية لا يميزه عن غيره من الشباب في نفس عمره إلا أنه رأى الموت رأي العين، المرة تلو المرة حتى أصبح الموت والحياة قرينين في عينيه؛ يستوي أحدهما مع الآخر، وهو ما تعكسه عيناه الزجاجيتان اللتان لا تنبئانك أبدًا عما يدور بداخل نفسه من صراعات وحروب عاشها وعاشت فيه.

من قال إن العين هي نافذة القلب؟!

حسنًا. سأعفيكم من تعليقاتي ومداخلاتي الفلسفية وأدع له المجال ليحكي قصته التي وعدته أن أنقلها بلا رتوش، وبلا تغيير للحقائق،

ببساطة لأنني رأيتها حالة أكثر منها قصة عابرة، هي حالة ملايين من الشباب والنساء والشيوخ والأطفال الذين عانوا ويلات الحرب؛ التي تركت في أعماق قلوبهم ندوبًا غائرة أبى

الزمن إلا أن يرسم أثرها على وجوههم، فتراها تتجلى في نظرة خاوية تارة وفي ابتسامة حزينة تارة أخرى.

بلهجة عربية سورية محببة للأذن قال مختار:

«قبل أن أحكي قصتي دعني أعرِّف نفسي، أنا «مختار» شاب سوري من مدينة الرقة، عمري خمسة وعشرون عامًا، أعيش الآن بالسويد، وأعمل كمطور أعمال بأحد المراكز الثقافية بالسويد. وُلدت ونشأت بمحافظة الرقة، شمال سوريا على ضفاف نهر الفرات، تقع الرقة في البادية السورية والمنطقة عشائرية يعرف أهلها بالكرم كما أن فيها أراض زراعية كثيرة كنا نمتلك بعضها، وهي مدينة صغيرة يعرف أكثر الناس فيها بعضهم بعضًا، تعرف الرقة بكرم أهلها وطيبتهم، وكما تقولون في مصر أن من يشرب من ماء النيل لا بُدَّ أن يعود له مرة أخرى، فنحن نقول أن من يشرب من ماء الفرات يصير صاحب كرم ولا ينسى أصله أبدًا.

وللرقة لهجتها الخاصة المختلفة، والتي لو حاكيتك بها الآن لما فهمتِني.

سألته مندهشة:

- لكن كيف...؟

قاطعني مبتسمًا:

إن أمي من إدلب وأبي أيضًا أصوله من خارج الرقة، لكننا وُلدنا بالرقة ولذلك فقد كانت لنا دائمًا لهجتنا التي نحكي بها

في البيت، ولهجة أخرى نتحدث بها مع الأصدقاء والجيران في شوارع الرقة، وعلى أي حالٍ فأنا أعتبر نفسي ابن الرقة وكذلك أسرتي، فهي مدينة من الصعب ألا يقع في غرامها من عاش فيها وشرب من فراتها.

لطالما تساءلت وأنا صغير عن معنى «الرقة»، هل اشتق اسمها من الجمال أم من الرِّق؟! ومن ثمّ أدركت أنها تأسرك لشدة جمالها.

وللـ «الرقة» خصائصها وحكاياتها ولهجتها المختلفة وطابعها الخاص، لذا فقد أحببتها من كل قلبي.

وفي سن السابعة عشرة بدأت أحداث سوريا التي تابعها العالم،

عندما بدأت الأحداث كنت بالصف العاشر أو الحادي عشر، كنا نجتهد - أنا وأصدقائي- وندرس ونطور من أنفسنا قدر الإمكان لنلتحق بالمعاهد والدورات الخاصة استعدادا للبكالوريا - الثانوية العامة كما تسمونها.

توترت الأحداث بمدينتي وتصاعدت عندما قُتِل أول شخص في مدينتنا، وأصبح هناك ثأر، «لما صار في دم، خربت المدينة»، «بس صار في دم خربت سوريا كلياتها».

كان الطموح وحب النجاح والتطلع للمستقبل بعد البكالوريا هو كل ما يدور ببالنا ويشغل عقولنا قبل بداية تلك الأحداث،

إذ لم نكن نعلم أنه وخلال أشهر قليلة سيصبح مستقبلنا، بل وحياتنا التي كنا نعرفها، أثرًا بعد عين.

بدأت الحرب، ومعها بدأت المعاناة.

عندما أتممت عامي السادس عشر، كان قد انقضى عامٌ ونصف من المعاناة، وخشي أهلي عليَّ وأنا الابن البكر للعائلة والذراع الأيمن لأبي، الذي كانت هواجس فقدي أو إصابتي بمكروه تطارده كالجحيم.

كانت أحوالنا ميسورة ومستقرة إذ كان أبي موظفًا بمنصب جيد يتمتع بمكانة عالية في المدينة، كذلك كان لدينا منزل وأراض وسيارة ومتجر، وهذا ما شجَّع أبي على اتخاذ هذا القرار بشأني ورغمًا عن إرادتي، فليس كل من كان يريد الخروج من سوريا يستطيع تحمُّل المشقة والمخاطر، وكذلك التكلفة التي كانت تُعَد مرتفعة في ذلك الوقت.

رفضت السفر خارج سوريا المرة تلو المرة، وصممت على البقاء مع أهلي رافضًا فراق الرقة الحبيبة، وعلى الرغم من رفضي فلقد سافرت مرغمًا إلى تركيا للعمل مع عمي هناك بعيدًا عن أجواء الحرب والصراعات ببلدي الحبيب.

كان العمل شاقًّا والغربة مريرة، كنت ببساطة أختنق، وفراق الأهل والأصدقاء ومدينتي الحبيبة كالنار تحرق قلبي وتضعف عزيمتي وقدرتي على العمل،كما أن العمل لم يكن مجزيًا أبدًا لا سيما لفتى لم يتجاوز السابعة عشر من عمره.

لم أكن سعيدًا بالتأكيد، فقررت قرارًا جريئًا نابعًا من وحشتي الشديدة واغترابي في سنٍّ أنا أحوج ما أكون للحياة فيه مع أهلي.

لم تكن جرأة القرار نابعة من مجرد اتخاذه، بل كانت الظروف تعتبر تحديًّا قويًّا؛ حيث الحدود مغلقة والخروج أو العودة من سوريا شِبه مستحيلة.

قررت العودة إلى سوريا عن طريق التهريب، وسأترك لمخيلتك هذا المشهد. صبي في السادسة عشرة يركض على الحدود ويُطلق عليه الرصاص وهو يركض بكل ما لديه من رفض للغربة في تركيا وإن كانت جميلة، وبكل ما في نفسه من شوق إلى وطنه سوريا وإن كان جريحًا ممزقًا!

في تلك اللحظة المليئة بشتى المشاعر الإنسانية، قررت أنني لو كتبت لي النجاة في ذلك النهار وعُدت إلى سوريا حيًّا سأُقبِّل ترابها وأبقى فيها للأبد، وقد كان!

قبَّلت ترابها وعدت آفلا إلى أهلي الذين فرحوا برؤيتي أيما فرح، لكنهم ما لبثوا بعدها أن عادوا ليحسبوا حساباتهم..

- «شو راح يعمل هذا الولد بس يرجع لهونِ»

- «كيف بدنا نحميه، كيف بدنا نعمل»

كانت الأمور صعبة والوضع يتفاقم من حولنا ولا مناص عن مغادرة سوريا مرة أخرى.

كان الجميع يعانون لكن كان عندنا بعض من رفاهية الاختيار، فاختار أبي - مطاردًا بهواجس الفقد- أن نغادر ولو بشكل مؤقت، حفاظًا على أرواحنا وخوفًا من وضعٍ قد يتفاقم أكثر في عشية وضحاها.

طلب مني أبي بعد فترة السفر مع أمي لتركيا تمهيدًا لتوصيلها إلى السويد حيث أقاربنا هناك، ثم العودة من جديد إلى سوريا.

وبعد فترة تبين أن أبي خطَّط لغير ذلك، وأنني لن أعود لسوريا قريبًا، وقد تبين فيما بعد أنه على حق؛ حيث تردت الأوضاع في سوريا لاسيَّما مدينتنا الحبيبة، تغيَّر كل شيء وأصبح المرء لا يأمن على حياته وعلى أسرته في أي مكان، ولم يكن هناك بديل عن النجاح في السفر إلى بلد آمن وحياة كريمة إلا الموت!

***

ركوب الأهوال

سافرنا أنا وأمي وأخي الأصغر إلى تركيا بلا مشاكل تُذكَر، ومِن هناك أدركت من خلال اتصالات أبي أننا لن نعود إلى سوريا، بل علينا أن نذهب إلى السويد في أقرب وقت حتى يلحق بنا أبي وباقي إخوتي.

كان أبي في موقف لا يُحسَد عليه، فلقد ودَّع زوجته وابنه الأكبر (أنا) وابنه الأصغر ليذهبوا في رحلة خطرة هي المجهول بعينه، والقلق ينهش أحشاءه، وفي نفس الوقت عليه أن يعتني بباقي إخوتي ويرعاهم إلى حين يأذن الله لنا باللقاء من جديد.

كنا قد جمعنا كل ما استطعنا من مالٍ، كما أرسل إلينا خالي الذي يعيش هو وخالتي في أوروبا منذ سنوات طويلة، مبلغًا من المال، فصار بحوزتنا ٤٠٠٠ دولار وهو مبلغ لا بأس به أبدًا، عقدنا العزم وتفاءلنا بالمستقبل، ولم نكن نعرف ما الذي تخبئه لنا الأيام.

***

وفي أسطنبول كان من المفترض أن نقابل شخصًا يساعدنا في السفر بسهولة وبشكل نظامي إلى السويد.

طلب الرجل ٣٠٠٠ دولار مقابل ذلك، فأخبرناه أننا لن ندفع إلا بعد أن نسافر، وبعد كثيرٍ من الأخذ والرد، اتفقنا أن نضع الأموال عند شخصٍ محايد نعرفه ويكون وسيطًا بيننا وبينه، ولدهشتنا أنه بعد أيام معدودة أخذ هذا الشخص الأموال واختفى!!

وهذه كانت أول مرة ينصب علينا، ربما بمساعدة الطرف المحايد أو بخديعته لا أعرف، لكن كل ما نعرفه في ذلك الوقت أنه لم يتبقَّ معنا الكثير من المال.

كانت خياراتنا محدودة جدًّا، مابين العودة لسوريا مرة أخرى، أو السفر لليونان عن طريق التهريب أيضًا وفي كِلا الأمرين مخاطرة شديدة.

اخترت السفر إلى اليونان، ومنه إلى السويد لنكمل الطريق الذي بدأناه ونسير فيه حتى نهايته.

ومن تركيا حاولنا سبع محاولات فاشلة للسفر إلى اليونان برًّا!

كان علينا أن نسير ثلاثة أيام في الجبال الوعرة وبعدها نتجه للبحر.

والحق أننا رأينا في غمار هذه المحاولات من الأهوال ما لم نره في حياتنا من قبل.

رأينا الكثيرين من المهاجرين «مقتولين ضرب»، ضربتهم الشرطة اليونانية ضربًا مبرحًا وجردوهم من ثيابهم، ومعها نقودهم التي كانوا يحملونها معهم، ثم أعادوهم من جديد، وآخرون خرج عليهم قطاع الطرق (البلطجية) كما تسمونهم في مصر ففعلوا بهم نفس الشيء.

ومن المعروف عن المهربين أنهم بلا قلب وبلا رحمة، كانوا ينقلوننا في الشاحنات الكبيرة (المبردات)، ويسلكون بنا دروبًا وعرة لا نعرفها، ثم يتركوننا فوق قمم الجبال بلا مأوى ولا زاد.

كانوا يتحركون بنا في الليل تحت ستار الظلام، يتركوننا في أماكن وعرة ويأمروننا بانتظارهم لحين عودتهم إلينا مرة أخرى.

أذكر أنه ذات مرة وضعونا على سفح جبل، ونمنا ليلتنا هناك لا ندري أين نحن، وعندما استيقظنا وجدنا أنفسنا على الحافة؛ بحيث أنه لو تقلب أحدنا أثناء نومه لوقع من حالق ولمات على الفور.

في اليوم الأول أكلنا الطعام القليل الذي كنا قد جلبناه معنا، وفي اليوم الثاني ظللنا بلا طعام، وفي اليوم الثالث كان الإجهاد والتعب قد بلغَ بنا كل مبلغ فأعطونا بعضَ ثمراتٍ من البندورة (الطماطم) والخبز، فيا لرقة قلوبهم.

أضاف عبارته الأخيرة مبتسمًا بمرارة مردفًا:

وليتها نجحت المحاولة، بل كان الفشل مصيرها كباقي المحاولات، ومن ثم كنا نعود إلى تركيا مرة أخرى، وما نلبث أن نعاود الكرة من جديد ملقين بأنفسنا في قلب المجهول من جديد.

وفي محاولة أخرى فاشلة أخذنا المهرب بالسيارة ليلًا إلى منطقة نائية، وتركنا في حظيرة مهجورة.

مكثنا فيها ليوم كامل ولم يأتِ لنا المهرب مرة أخرى، ولم ندر إلى أين نذهب؛ ثم علمنا فيما بعد أن المهرب كان قد ألقي القبض عليه تاركًا إيانا للمجهول.

من نافلة القول أننا قد عانينا الأمرّين وقتها حتى نستطيع الذهاب إلى أقرب منطقة مأهولة لنلتقط أنفسنا ثم نعيد الكرة من جديد.

لم يكن هناك حلٌّ آخر، حياة أبي وإخوتي في خطر، وحياتنا في خطر أيضًا، ولن ينتهي هذا الكابوس إلا باللجوء إلى حيث أقاربنا في السويد ولملمة شمل عائلتنا من جديد.

كنا نتحرك دائمًا تحت جنح الليل في الظلام، فالليل ستار كما يردد المهرِّبون دائمًا، كما كنا نسمع عن قصص مَن سبقونا وسلكوا هذا الطريق؛ مات منهم مَن مات وعاش من عاش.

أخبرني مجموعة من أصدقائي لاحقًا أن القارب كان قد انقلب

بهم في عرض البحر؛ بفعل الرياح العاتية، وظلوا يسبحون لساعات طويلة وهم يلبسون سترات النجاة حتى مرت بهم سفينة تابعة للأمم المتحدة أنقذتهم قبل أن يجودوا بآخر أنفاسهم، ثم سألوهم عن الوجهة التي يريدون التوجه إليها، هل إلى تركيا أم إلى اليونان فأخبرهم أصدقائي أنهم يريدون التوجه إلى اليونان، ولقد التقيتهم لاحقًا باليونان ثم بالسويد بعد ذلك.

محاولات مضنية شاقة، نلتقي فيها برجال ملثمين ومسلحين، في دروب لا نعرفها نحو مجهول لا نعلم هل نصل إليه أم نموت دونه.

ثم اعتدل في جلسته منتبهًا وكأنه تذكَّر شيئًا ثم قال:

هناك مرة من المرات لا أنساها أبدًا بحياتي، مختلفة هي عن كل المحاولات السابقة..

كنا قد قررنا في تلك المرة أن نتحرك من إسطنبول إلى أزمير، وهي مدينة حدودية بين تركيا واليونان، واليونان بوابة أوروبا كما تعرفين.

فكرنا أننا لو استطعنا الوصول لليونان فقد صار الوصول للسويد أمرًا يسيرًا، وعند الوصول إلى بيت خالتي هناك يكون لم شمل أسرتنا أمرًا سهلاً ميسورًا.

كان غاية ما تأمل عائلتي أن يجتمع شملنا هناك في السويد، بعيدًا عن الحرب والخوف وأشباح الموت التي تلقي بظلالها

الكئيبة على مدن وشوارع سوريا، وكان غاية ما أتمنى هو أن أعود إلى (الرقة) الحبيبة؛ أنهل من فراتها وأملي عيني من كل ركن فيها!

كنا نحاول المرة تلو الأخرى لنصل إلى مكان آمن مستقر، ويصل من بعدنا إليه أبي وباقي إخوتي، ذلك الحلم الذي بدا لنا جميعًا حينئذٍ صعبًا عسير المنال.

في تلك المرة تحركنا عن طريق البحر في قارب مطاطي حاملين إياه نازلين به من الجبل، ومن ثم بدأنا ننفخه لنركبه وننطلق إلى عرض البحر.

كانت تلك أكثر محاولة اقتربنا فيها من هدفنا، حتى إن معالم اليونان بدأت تتضح في الأُفق، وكان أمامنا دقائق قليلة جدًّا لنصل إلى إحدى الجزر اليونانية، ولكن فجأة ظهرت سفينة يونانية سريعة نسميها باللهجة السورية (شختورة) لحقت بنا الشختورة اليونانية ودارت بسرعة كبيرة لعمل دوامة من حولنا، ثم بدأت فورًا بإطلاق الرصاص علينا.

توقفنا فورًا والكل خائف مما قد يحدث، كان معنا أطفال ونساء وكبار في السن ورضّع وكان معنا امرأة حامل، وشباب وبنات باختصار كان معنا من البشر (مشكل ملون).

أخذونا وربطوا مؤخرة قاربنا بالسفينة ثم سحبونا عائدين بنا لنصف البحر إلى منطقة لا نرى فيها الطرف اليوناني ولا الطرف التركي، كان كل ما نراه فقط هو البحر والسماء.

ثم ربطوا محرك القارب - وكان ضعيفًا أصلًا- بالكاد يوجهنا نحو اليمين أو اليسار ولم يكن يوفر لنا قوة دفع نسير بها للأمام.

وأثناء خلعهم ورفعهم للمحرك سقط منهم في البحر، فغضب قائد قوات الخفر اليوناني وزاد من سرعة القارب بشكل مخيف، فانقلب القارب بنا في وسط الماء فتركونا وذهبوا؟!!

لا أحتاج هنا أن أقول إن الجميع قد أصابهم الفزع الشديد وبدأ معظمهم يغرقون؛ فكثير منهم لا يعرف السباحة، وبدا شبح الموت يخيم فوق الجميع.

تحركت أنا وثلاثة من الشباب الذين يجيدون السباحة، لننقذ الباقين ونجرهم نحو القارب المطاطي المقلوب ليتمسكوا بأطرافه.

نظرنا حولنا على مد البصر فلم نجد أيَّ أرض، ولا أي مخلوق، فقط البحر والسماء، وبكاء الأطفال ونشيج الكبار في سيمفونية مؤلمة للأذن مجسدة للعجز الذي نعانيه.

كان بيننا شاب يجيد اللغة التركية، وكان قد خبأ هاتفه في بالون أطفال وربطه جيدًا تحسُّبا لأي ظروف،كان بالونا من تلك البلالين التي تستخدم في أعياد الميلاد.

ولحسن الحظ وجد أن هاتفه ما زال يعمل فاتصل بخفر السواحل التركي، فأتوا بعد فترة وسحبونا إلى باخرة تابعة لهم، ثم أخذونا إلى مكان أشبه بسجن ملحق به مستشفى، أو مستشفى ملحقة بسجن.

كنا في حالة مزرية من الإعياء والألم والقهر، كانت تجلد قلبي دموع أمي الصامتة على وجنتيها، ونظرات الصدمة على وجه أخي الصغير؛ الذي حولته الصعاب إلى وجه كهل عجوز يعجز حتى عن البكاء.

بدأ التحقيق معنا وكان قد فاض بي الكيل وبلغ التعب مني كل مبلغ، ولم يكن هناك نهاية للتعب في نظري إلا عند الوصول إلى اليونان، فصحت بالضابط أن ينتهي من هذا التحقيق حتى نعاود الكرة مرة أخرى، فلطمني على وجهي فتصاعدت براكين الألم والقهر بداخلي، وبحركة مندفعة ضربت قالبًا زجاجيًّا بجانبي فانكسر وأصيبت يدي إصابة بليغة، ما زال أثرها ظاهرًا رغم مرور السنوات.

كاد الضباط الأتراك يفتكون بي لكن بعد أن رأوا إصابتي ثم وقوعي أرضًا بسبب الإعياء ونفاد الطاقة تركوني.

كانت تركيا واليونان والسويد وبلدان أخرى كثيرة يعلمون بأننا نحاول دخول البلاد بشكل غير شرعي، وكان بعضهم متعاطفًا معنا يدرك أنه ليس بيدنا حيلة، وأنه ليس أحب إلينا من بلادنا، وأنه لولا ما صار فيها لما فكرنا أبدًا في الخروج هربًا من ويلات الحرب؛ لذلك لم أتعجب عندما تركونا نذهب بعد أن تحسنت حالتي.

كان الحِمل ثقيلًا على ذلك الفتى صغير السن الذي كنته. كنت أتساءل يوميًّا عن ماهية الموت!

الموت كلمة..

والحياة أيضا كلمة..

الألم كلمة..

والقهر كذلك مجرد كلمة.

أدركت أن الكلمات لا تعبِّر عما نشعر به وما نعانيه مهما أوتيت من قوة وبلاغة، وأن شقاء الإنسان وكبد حياته قد يصل إلى آفاق لا تستطيعها الكلمات ولا تعبر عنها الحروف.

الموت!!

هل سنموت قبل أن نصل كما حدثَ لكثيرٍ ممن نعرفهم؟! هل نموت فرادى أم دفعة واحدة؟!

لطالما تساءلت عن الموعد الذي سأموت فيه، هل يكون صباحًا؟ يستسقظ أهلي ومَن أحب بصدور منقبضة استعدادًا لتلقي الخبر المفجع؟! أم يكون الوقت مساءً في سكون الليل عنيد وحيد يأبى إلا أن يرحل في هدوء بعيدًا عن الجميع، عن الصخب والألم والذهول الهيستيري المصاحب لتلك الظروف؟!

فقدت الكثير والكثير ممن أحب، بكيت وصرخت حينًا، واعتصر الألم قلبي وتحجرت الدموع في عينيّ أحيانًا، حتى إنني

كنت أشتاق أن أبكي، لسنوات طويلة بعد مرور هذه الأحداث كان البكاء عنيدًا، كرفاهية عصية بعيدة المنال.

كان ينتابني الفضول كثيرًا لمعرفة ماهية إحساس من هم على الجانب الآخر. ترى كيف سأشعر عندما يحين وقتي؟! بل بالأحرى هل سأشعر عندما يحين وقتي؟!

هل يعرف مَن يموت حين يموت؟ هل يدري أنه مات؟ ترى كيف يشعر حينها؟!

تأملات الموت الكئيبة، لا تصير بذات الكآبة إذا كنت ممتلئًا بالفضول الشديد، إذا أردت من كل قلبك أن تعثر على إجابات أسئلة ليس لها إجابة.

***

نجاح مـــؤقت

في المحاولـة الأخـيرة، كانـت المجموعـة كلهـا رجـال بالإضافـة إلى أمـي وأخـي الصغـير، واخترنـا أن نذهـب بقـارب مطاطـي أيضـا لكـن دون محـرك، اعتمدنـا عـلى التجديـف لنصـل إلى وجهتنـا؛ إلى إحـدى جـزر اليونـان.

كانت أمي هي المرأة الوحيدة؛ لكنها كانت ب(١٠٠ زلة).

ظلـت تشـجعنا وتقوينـا ونحـن نجـدف ونجـدف حتـى اقتربنـا كثـيرًا مـن الجزيـرة اليونانيـة، ولحسـن حظنـا في تلـك المـرة كان الجـو هادئًـا، ولم يكـن يصـدر عنّـا أي صـوت.

وصلنـا أخـيرًا إلى الجزيـرة اليونانيـة، ونحـن لا نـكاد نصـدق أنفسـنا، هـل وصلنـا حقًّـا؟!

قضينـا اليـوم الأول بالجبـل نسـتريح مـن مشـقة الرحلـة، وفي التـالي نزلنـا إلى المدينـة.

كان المـكان عبـارة عـن جزيـرة صغـيرة، وعـدد سـكانها قليـل جـدًّا لا يتجـاوز العـشرة آلاف نسـمة، ويعـرف الجميـع بعضهـم

بعضًا، ورغم أن المدينة سياحية لكن كان الطيران مغلقًا ولم يكن هناك سيَّاح في ذلك الوقت.

دهش أهل المدينة وصدموا حين رأوا هؤلاء السياح الذين هبطوا فوق رؤوسهم من مكان مجهول، وذهب سائق التاكسي الذي ركبنا معه إلى مخفر الشرطة مبلغًا عنا.

تم اقتيادنا إلى مخفر الشرطة وسألنا رئيس الشرطة، فأخبرناه أننا ذاهبون إلى (أثينا)؛ ففهم الأمر برمته وهز رأسه قائلًا:

- فهمت، إنتم جايين تهريب.

ثم حققوا معنا، وبعدها أعطونا أوراق طرد لنرحل من اليونان في أسرع وقت، لكن لحسن الحظ فهذه الأوراق أيضًا تتيح لنا التحرك في اليونان بلا قلق لحين خروجنا من البلد.

تواصلنا مع شخص عربي في أثينا عنده بيت للإيجار، وكان إيجاره خمسمائة يورو شهريًّا. اتفقت مع باقي المجموعة أن نستأجر هذا البيت ونتقاسم كلفة الإيجار معًا، ورحب الجميع بذلك.

وأخيرًا وصلنا إلى البيت في أثينا، بدَّلنا ثيابنا وبعد أن ارتحنا قليلًا، بدأنا بالتفكير في طريقة نسافر من خلالها من اليونان إلى السويد، وكانت الاحتمالات كثيرة؛ منها السفر برًّا أو جوًّا.

والسفر برًّا يُعَدّ في منتهى الخطورة؛ إذ يفصل بين اليونان

والسويد بلاد كثيرة، كما أن السفر عن طريق الجو له أكثر من طريقة.

الطريقة الأولى هي أن نسافر في طائرة زراعية لرشّ المبيدات، وكانت طريقة مضمونة إلى حدٍّ كبيرٍ؛ لأن هذه الطائرة ستطير بنا من اليونان لتقوم بإنزالنا في قلب إيطاليا، وإذا وصلنا إيطاليا يصير من السهل علينا التوجه إلى أي بلدٍ أوروبي؛ حيث تربط السكك الحديدية إيطاليا بباقي مدن أوروبا.

كانت العقبة الوحيدة أن الثمن يتراوح بين سبعة آلاف إلى عشرة آلاف يورو للفرد الواحد، وهذا ثمنٌ غالٍ جدًّا ولا نملكه لفرد واحد فما بالك بثلاثة أفراد؟!

لم يتبقَّ لنا إلا الطريقة الأخيرة، وهي طريقة كانت شائعة في ذلك الوقت، وتتلخص في أن المهرب يكون لديه جوازات سفر أوروبية يعليها تأشيرات صحيحة لأشخاص حقيقيين؛ والفكرة أن يكون هناك تشابه بين الشخص الذي سيتم تهريبه وبين صاحب جواز السفر الحقيقي.

لو نجحت المحاولة من المرة الأولى فبها ونعمت، وإن لم تنجح يسجن المسافر لمدة يوم أو يومين على الأكثر ثم يخلى سبيله، وأحيانًا كان يخلى سبيله في نفس اليوم، حتى إن بعضهم عندما كان يكتشف الضباط أمره كانوا يناولونه جواز السفر بابتسامة قائلين له:

- اذهب.. حظ أوفر في المرة القادمة.

ذلك أنهم يدركون أننا هاربون من حرب، ويحاول كلٌّ منا اللجوء إلى بلد يستطيع أن يتدبر أمره فيه.

هل تعتقدين أن هذه الرحلة قد استنفدت رصيدها من المآسي والنكبات؟! أم ما زال في جعبتها لنا الكثير؟!

***

نكبة جديـــــــــــدة

بعـد أيـام مـن وصولنـا إلى أثينـا، تواصَـل معـي صديـق لي اسـمه (أمجـد) وهـو شـاب سـوري مـن أصـول فلسـطينية، طيـب وشـجاع (جـدع) كـما تقولـون.

كان أمجـد يخطـط لأن يسـلك نفـس الطريـق الـذي سـلكناه مـن إزمـير بتركيـا إلى اليونـان، مـع اختـلاف جوهـري.

كان يـرى أن سـبب فشـل محـاولات الوصـول للجزيـرة اليونانيـة هـي القـوارب ذات المحـركات؛ ففكـر بفكـرة جنونية، وهي أن يسـلك نفـس الطريـق الـذي سـلكناه، لكـن ليـس تجديفًـا بـل سـباحة!

كانـت المسـافة تقـدر بـ ١,٧ كـم، فكيـف لهـم أن يسـبحوا كل هـذه المسـافة في عـرض البحـر؟! وقـد كان يصادفنـا أثنـاء رحلتنـا بالقـارب المطاطـي الأسـماك الكبـيرة والدلافـين التـي تهـز القـارب ممـا كان يشـعرنا بالخـوف، فكيـف بهـم وهـم سيسـبحون في البحـر مبـاشرة سـباحة متواصلـة بـلا قـارب يحتمـون بـه؟!

تحمَّـس أمجـد للفكـرة وانضـم إليـه في رحلتـه شـابٌ يسـمَّى عمـر،

وزوجته، فكان كل ما يحملونه معهم إطار سيارة داخلي كان أشبه ما يكون بـ (العوامة) يتمسكون به إذا أصابهم التعب.

حادثني في الهاتف قبل تحرُّكه وحذَّرته من خطورة الأمر سيما وأن معهم امرأة لكنهم أصروا.

وعندما وصلوا إلى الجزيرة اليونانية أخيرًا كانوا في غاية التعب، وفي حالة يُرثَى لها من الإعياء الشديد؛ بأنفاس متقطعة وبلا شحاطات (أحذية)، وما تبقى من ملابسهم بالكاد يستر عوراتهم، والحق أنني احترمت مثابرتهم وشجاعتهم وإصرارهم.

استقبلناهم واستضفناهم في البيت الذي كنا قد استأجرناه، واستقر بهم المقام أخيرًا.

بعد واجب الضيافة ومرور أسبوع على وصولهم، اتفقنا معهم أن نتقاسم ثمن الإيجار جميعًا، فوافق أمجد فورًا وأخرج ٧٠٠ يورو، ووعدَ بأن يدفع باقي المبلغ خلال أيام عندما يرسل له أهله المال.

أما عمر وزوجته فأخبرانا أنهما ليس معهما أي أموال، وأنهما يحتاجان أسبوعًا آخر على الأقل حتى يتوفر معهما المال الذي سيرسله لهما ذووهما، وكان جوابي هو الجواب المنطقي السريع المعتاد في هذه المواقف:

«عادي يا زلمة ما في مشكلة، أهلًا وسهلًا.. أكيد ما راح نطردكم من البيت يعني.. ولو.. الناس لبعضها».

اشترينا لهم ثيابًا وقدمنا لهم ما يكفيهم من طعام وشراب طوال تلك الفترة تعويضًا لهما عما لاقياه في تلك الرحلة الشاقة؛ التي ندرك نحن أكثر من أي أحدٍ آخر مدى صعوبتها.

وفي ليلة لم يظهرلها قمر، صارت الكارثة الكبرى!

في تلك الليلة كنت متمددًا على الأريكة أشاهد التلفاز، وبعض الشباب ينامون بغرفة الصالون، وجزء آخر منهم ينام بغرفة أخرى؛ أما الغرفة الثالثة فتنام بها أمي وزوجة عمر وأخي الصغير.

غفوت وأنا على الأريكة، ورأيت فيما يرى النائم أن هناك قطة سوداء تضايقني وتخمش وجهي، وتحاول خنقي، فقمت من النوم فزعًا متعوِّذًا بالله من الشيطان الرجيم، ثم ما لبثت أن استغرقت في النوم من جديد.

وفي الصباح حكيت لأمي عن الكابوس الذي رأيته، فتعجبت وقالت لي: عساه خيرًا إن شاء الله.

وعلى طاولة الإفطار لاحظنا أن عمر وزوجته ليسا بالبيت، وظننا أنهما خرجا للتمشية في المدينة وسيعودان بعد قليل.

وبعد قليل لاحظت أن أمي تتحرك في كل مكان وكأنها تبحث عن شيءٍ ما، وعلى وجهها تجلت تعابير الحيرة والاضطراب؛ حتى إنها تكاد تكلم نفسها.

سألتها:

- عمَّ تبحثين؟!

نظرت إليَّ قائلة:

- «وين المصاري»؟!

ثم اتسعت عيناها بذعر وكأنها تحاول استيعاب الأمر مردفة:

- سرقوا المصاري وراحوا.

كانت أمي تخفي الأموال في الغرفة لكنها لم تجدها أبدًا!

أربعة آلاف يورو هي كل ما نحتكم عليه بمساعدة الأهل، بالإضافة إلى الخمسمائة يورو التي دفعها أمجد، سرقتهم زوجة عمر وخرجت من المنزل برفقة زوجها بليلة ما فيها ضوء قمر.

هنا كانت النكبة الكبرى.

بحثنا عنهما في كل مكان بلا جدوى، تلاشت آثارهما للأبد، ولم نسمع بهما مرة أخرى.

بعد كل ما عانيناه جميعًا؟ لا أكاد أصدق!!

كم هي عجيبة تصرفات بعض البشر في النكبات!

طالعت صورته الباسمة على شاشة الحاسوب المحمول، ولشد ما أدهشتني عبارته التالية:

- «بس ربك ما بيقطع حدا، يجوز كانوا محتاجين هالمصاري أكتر منّا.. ما بنعرف شو كان وضعهم وهلأ شو وين أراضيهم وشو صار فيهم، الله أعلم».

ثم أكمل قائلًا:

- برغم قسوة الظروف ورغم تعرضنا للخديعة والسرقة، لم يتخل الله عنّا.. الله لطيف بعباده.

أرسل إلينا خالي مبلغًا من المال لنتدبر أمر تكلفة إيجار المنزل، وفي الشهر التالي تواصل أقاربي مع بعض المهربين، وأرسلوا أرواقَ السفر إلى أمي وأخي الصغير مرفق بها تأشيرات للسفر إلى السويد رأسًا، لكن واجهتنا مشكلةٌ، إذ أن جوازَات السفر المرسَلة كانت لامرأة شقراء ولصبي أشقر ذي عينين خضراوين!!

تعجبنا كثيرًا وتساءلنا كيف ستتصرف في هذا الأمر؟! وكيف سنحوِّل بشرة أمي القمحية إلى شقراء؟ بل وكيف نحوِّل هذا الطفل العربي السوري إلى آخر أوروبي أشقر؟!

وأسقط في يدنا، لكن...

لم يكن لدينا أي بديل آخر، وكان لا بُدَّ من أن نحاول ونأمل أن يمر الأمر بسلام.

***

ابتسامة رغم الألـــــم

قد تدفعنا الحاجة أحيانًا إلى ارتكاب الأخطاء.

وإذا كان الإنسان خطّاءً بطبيعته بلا حاجة أو اضطرار؛ فكيف به وهو يصارع أصعب الظروف متمسكًا بما تبقى لديه من رغبة في الحياة؟!

كان هروبنا عبر الحدود خطأ وغير قانوني، كما كان تغييرنا لشكل أمي وأخي كذلك، ولكن ماذا نفعل وقد ضاقت بنا القوانين واضطرتنا الصعاب إلى المخاطرة بحياتنا والهجرة في ظروف تكاد تكون مستحيلة؟!

قامت أمي بتشقير شعرها، كما كانت ضحكاتنا تنطلق عالية مجلجلة - ربما للمرة الأولى منذ فترة طويلة - ونحن نحاول تحويل شعر أخي وبشرته ورموشه وحتى حاجبيه إلى اللون الأشقر ووضعنا له العدسات اللاصقة بلون أخضر محاولين تثبيتها حتى لا تقع في أي لحظة.

عندما نظرت إليهما في هيئتهما الجديدة الشقراء لم أكد أعرفهما، ومن رحمة الله بنا أن تم الأمر بسلام وسافرا إلى السويد مع

المحاولة الأولى، وبقيت عالقًا في اليونان بسبب بشرتي السمراء التي تفضح بشدة هويتي العربية وتمنعني من استخدام جواز سفر أوروبي.

كنت أنتظر معجزة من السماء لترسلني إلى السويد حيث نصف أسرتي، ومعجزة أخرى تأتي بالنصف الباقي من أسرتي من سوريا.

والحق أنني حاولت كثيرًا السفر بنفس الطريقة التي سافرت بها أمي وأخي؛ لكن في كل مرة كان الأمر يبوء بالفشل، وبدا أن سفري إلى السويد مستحيل في ذلك الوقت.

مكثت في اليونان عامًا آخر، وحدي هذه المرة، ذهب من كان معي واحدًا تلو الآخر وبقيت وحدي، حتى إن ابن خالي الذي وصل إلى أثينا وفرحت بقدومه كثيرًا ما لبث أن مكث معي لفترة ثم غادر هو الآخر إلى السويد.

وبقيت أنا..

بقي الفتى ذو السابعة عشر ربيعًا وحده في بلاد غريبة، لا يعرف متى يلتقي بأسرته، لا يعرف - في الواقع - إذا كان مقدرًا له أن يلتقي بأهله مجددًا أم يموت دون هذه الأمنية العزيزة.

أذكر أن عيد ميلادي السابع عشر وأنا بعد وحيد في اليونان، جلست ليلتها وحدي حزينًا متحسرًا على أيام كنا نجتمع فيها في بيتنا الكبير بالرقة مستقبلين الأقارب والجيران في المناسبات

السعيدة، يأتون مهنئين ومباركين؛ داعين لأبي بأن يحفظ الله له أولاده ويجعلهم قرة عين.

رباه! لماذا تبدوا هذه الذكريات بعيدة، وكأنها قد حدثت من ألف عام؟

أيقنت أنني لا بُدَّ أن أتمالك نفسي وأتجلد؛ حتى أستطيع المرور من هذه الفترة الصعبة، وطالما ما مفر من الهروب من هذا الأمر فلا بُدَّ إذًا أن أكون على قدر الموقف.

كنت ما زلت أعيش في البيت الذي كنا قد استأجرناه، وحتى أستطيع أن أجمع ثمن الإيجار كان لا بُدَّ من تسكين شباب آخرين، ولحسن حظي فقد توافدت أعداد كبيرة إلى اليونان في الشهور التالية؛ كان السكن يعتبر مشكلة عويصة وتحديًا كبيرًا لهم؛ إذ أن اليونان تعتبر وِجهة سياحية وتكلفة الفنادق فيها باهظة الثمن.

كنت أتقاضى مئة يورو في الشهر من كل شخص أقوم بتسكينه معي في المنزل، ونادرًا ما كانوا يحتاجون إلى المكوث أكثر من شهر؛ ففي النهاية كانت اليونان محطة لهم وليست دار مقام.

ساعدني ذلك على دفع ثمن الإيجار وبعض تكاليف المعيشة، وظلَّ كثيرٌ من الشباب يأتون ليسكنوا عندي ثم يذهبون، حتى صرت معروفًا بينهم باسم (مختار اليونان).

أصبحت أعرف اليونان بطُرقها وجزرها وأماكنها، وصارت عندي خبرة كبيرة في كل شيء متعلق بالحياة في اليونان، فكان من يمرض ويريد الذهاب إلى مشفى يسألني، ومن يريد السكن يسألني، وحتى من كان يريد أن يعرف احتمالات نجاح سفره تهريبًا يسألني؛ حيث أنني خضت محاولات كثيرة فاشلة وعندي من الخبرة ما يجعلني أُحسن حساب احتمالات الفشل والنجاح.

لم أصبح رجل أعمال، لم يتوسع الأمر كثيرًا لهذه الدرجة؛ فعلى الرغم من علاقاتي الكثيرة وشهرتي بين السوريين في اليونان غير أنه كان ينطبق عليَّ في ذلك الوقت مثل سوريّ شهير معناه أن المصالح كثيرة ومتعددة والرزق قليل، لكنني حمدت الله على كل حال.

كانت هناك أيام وليال قاسية لا تُنسَى، حكيتها كثيرًا وما زلت أحكيها وأرددها بلا خجل أو مداراة، وأحسبني سأظل أتذكرها إلى أن أموت.

كانت تمر بي أيام وليالٍ طويلة وليس في البيت أي شيءٍ من الطعام والزاد؛ اللهم إلا بعض الخبز وقليل من الزبد والسكر، فكنت أفتح الخبز وأدهنه بالزبد ثم أرش فوقه السكر وآكل. ظللت أسبوعًا كاملًا على هذا الوضع.

كانت هناك بعض المنظمات والمؤسسات الإنسانية، يوزعون فيها أحيانًا وجبات طعام للفقراء والمشردين والمتسولين ومدمني المخدرات، ومن ليس لهم مأوى.

كنت أذهب إلى هناك في الساعة السابعة صباحًا وأشحذ طعامي شحاذة، ولكم كان يؤلمني هذا الأمر؛ فلقد أتيت من بيت عزّ وكرم، فنحن بحياتنا لم نحتج إلى أي أحدٍ أبدًا؛ بل كنا نوزع الطعام ونهب لمساعدة من يحتاج المساعدة من أهل مدينتنا، لذلك آلمني أن أقف هنا في تلك المدينة الغريبة أتسول لقيمات لأسكت بها وحش الجوع الذي ينهش أحشائي.

وكما مررت بظروف صعبة فلقد مررت بظروف أفضل كذلك؛ فأحيانًا كان يأتي إلى بيتي أفراد قارب كامل قوامه خمسة عشر شابًّا يطلبون السكن معي، وهذا معناه ألف وخمسمائة يورو، وهو مبلغ جيد جدًّا يمكنني من دفع الإيجار وشراء الطعام لتصير الأمور بخير ويكون كل شيء «ع الأربعة وعشرين».

***

حســـــام

ذات يــوم جــاءني شــاب مــن إدلــب عمــره خمســة وعــشرون عامًــا، تخــرج حديثًــا في كليــة الطــب بســوريا، ولشــدة حــب أهلــه لــه وخوفهــم عليــه أخرجــوه مــن ســوريا ليصــل إلى اليونــان مؤقتًــا، ومنهــا إلى الدنــمارك حيــث أقاربــه هنــاك.

كان لــزوج أختــه صديــق ســكن معــي في اليونــان في فــترة ســابقة، وكان حســام قــد وصــل لتــوه إلى اليونــان عــن طريــق البــر.

أقــام حســام عنــدي عــدة أيــام، واتصــل بــه قريبــه مؤكِّــدًا عليــه أن يتواصــل مــع المهــرب ليخرجــه مــن اليونــان إلى الدنــمارك في أقــرب وقــتٍ.

أخــبرني حســام أنــه يريــد الذهــاب إلى العنــوان الــذي ســيقابل فيــه المهــرِّب، فقلــت لــه:

- إيه.. توكل على الله.. روح.

- ما بعرف اروح لحالي بدي اياك توصلني.

- إيه.. تكرم عيونك.. بوصلك.

لكنني أخبرته أننا علينا الذهاب والعودة بسرعة، لأنني لا بُدَّ أن أنام مبكرًا؛ لأسافر في الصباح التالي إلى مدينة ثيسالونيكي وهي مدينة تَبعُد عن أثينا قرابة الستّ ساعاتٍ؛ لأقوم بتوصيل ابن خالي أيضًا إلى المطار لأنه سيسافر إلى السويد.

وبالفعل ذهبنا لملاقاة المهرِّب الذي سلَّم حسام جواز السفر، وأخبره أنه سيمر عليه غدًا ويذهبان إلى المطار لأن حسام سوف يسافر غدًا إلى الدنمارك، وكانت هذه أخبار جيدة سُرَّ بها حسام كثيرًا، وعدنا إلى البيت على وعدٍ بأن يقابل المهرِّب حسام في اليوم التالي.

وفي صباح اليوم التالي سافرتُ مع ابن خالي من أثينا إلى ثيسالونيكي بالقطار لمدة ست ساعات؛ حتى يستقل الطائرة من هناك مسافرًا إلى السويد.

وعندما ذهب عدت راجعًا إلى البيت في أثينا مرة أخرى، سألت الشباب عن حسام فأجالوا:

- حسام شكله طار.

- طار الزلمة.. الله يوفقه، اليوم أو بكرة بيوصل ويخبرنا.

انتظرنا أن يخبرنا بوصوله ومر يوم..

اثنان..

ثلاثة..

أربعة..

شهر..

اثنان..

ثلاثة..

أربعة.

سنة!!

ولم يخبرنا أحد بوصوله ولم يتصل بنا كما اتفقنا.

مرت الأيام وأرسل لي ابن خالي أوراقه لأسافر بها إلى السويد، وكان الأمر يسيرًا هذه المرة بسبب الشبه الواضح بيني وبين ابن خالي ونجحت المحاولة أخيرًا واجتمع شمل نصف عائلتي، واعتقدت أنه قد آن الأوان أخيرًا لأن أحط الرحال، وأستريح من التعب.

عزمت على تعلُّم اللغة السويدية، وعملت مع عدة مؤسسات خيرية، ثم بدأت أستأنف دراستي من جديد وبدا أن الحياة تبتسم لي من جديد؛ لا سيما وهناك أخبار بقرب وصول أبي وباقي إخوتي إلى السويد.

سماني أصدقائي في السويد الفايكنج السوري، كناية عن تحمُّلي الصعاب، وبدأت أندمج في هذا المجتمع الجديد وآلف حياتي الجديدة.

وبعد مرور خمسة أشهر على مغادرتي اليونان ووصولي إلى السويد تلقيت اتصالًا من أحد أقارب حسام، أخبرني أنه سيرسل لي مقال ويريد مني ترجمته.

أرسل لي المقال مرفقا به صورة، دققت في الصورة وقرأت عنوان المقال فجحظت عيناي ذهولا، وانعقد لساني من هول المفاجأة!

كانت هذه صورته..

يا الله..

صورة حسام عثمان مقتولًا!!

قتله المهرب الذي كان يأمل أن يوصله لبر الأمان أخيرًا بعد رحلة طويلة وشاقة من المعاناة، وليته اكتفى بذلك، بل إن المجرم قد مثَّل بجثته وشنَّع بها فقطعها وألقى بها في المزابل، ذلك الحيوان القذر.

غلى الدم في عروقي وأغرقت الدموع وجهي.

حسام؟! ذلك الشاب الطيب المبتسم، جميل المحيا؟!

رحمك الله يا حسام.

تنهد مختار وانزلقت دموعه رغمًا عنه ليمسحها بسرعة ثم يشيح بوجهه بعيدًا.

آثرت أن أعطيه الوقت والمساحة، وبدا أنه يحاول ابتلاع

غصة الذكرى المؤلمة، ثم ما لبث أن أكمل:

كانت حالتي النفسية سيئة جدًّا إثر معرفة الخبر المفجع؛ فقد كنت مرافقًا لحسام حتى آخر يوم حتى إنني ذهبت معه إلى المهرِّب الذي وعده بحياة كريمة واعدة في الدنمارك، وكانت الأمور تبدو على ما يرام.

لكن ليس ديدن المصائب أن تأتي فرادى.

فقد اتهمني بعض أقارب حسام بأن لي يدًا في قتله، أو أنني على الأقل أعرف متى وأين قُتِلَ، قائلين بالنص:

- «أنت آخر شخص كنت معه».

عقد الذهول لساني.. أنا؟! أنا أقتل؟ وأقتل مَن؟ د.حسام؟!

هل يتهمونني بالمشاركة في قتله؟!

ملأ الخوف والرعب قلبي، فهذه ورطة جديدة ومصيبة كبيرة، إزهاق نفس بشرية.

طلبوا مني أن أساعدهم في الوصول لقاتله إذا لم يكن لي فعلًا يد في قتله أو معرفة بمن قتله.

كان قد مرَّ أكثر من عام على رؤيتي لحسام آخر مرة، فجلست وحاولت أن أهدأ وأن أتذكر كل ما جرى لأمسك بطرف الخيط وأرشدهم إليه.

كان زوج أخت حسام يعيش بالكويت، وقد حصل على

فيزا لأوروبا وجاء ليتابع قصة حسام رحمه الله ليعرف ما الذي حدث له.

ظل يتابع القضية مع الأمن ومع المباحث الجنائية، وبدأت أصابع الاتهام تشير إليَّ بشكل واضح وصريح إذ لم يكن عندهم طرف خيط آخر.

شاب صغير لم يتجاوز عامه الثامن عشر بعد، لم يسمع حتى عن مثل هذه الجرائم الوحشية من قبل، وفي المرة الأولى التي يسمع فيها عنها يصير متهما فيها!! كنت «ميت رعب».

أحيانًا تدور بك الحياة في دوامة عميقة، فيصبح حتى الحزن رفاهية، وتحل محله مشاعر أخرى وحشية مثل الخوف والفزع.

أخبرتهم مرارًا وتكرارًا بما حدث يومها، وبأنه أراد الذهاب إلى المهرب للاتفاق معه، سألوني عن اسم المهرب وجنسيته، فأخبرتهم أن اسمه كان فراس، وأنه سوري من مدينة اللاذقية، فظلت قوات الأمن تبحث عنه حتى ضبطوه وألقي القبض عليه، وتنفست حينها الصعداء.

تجمعت عائلتنا أخيرًا من جديد، ولكن لدهشتي الشديدة لم يكن وقت اللقاء سعيدًا مبهجًا بقدر ما كان مرًّا بقدر الألم، واللوعة، ومرارة سنوات الغربة.

لم أعد ذلك الفتى ذا السادسة عشر، ولم يعوض أخي سنوات طفولته الصعبة، ولم أرَ أمي بعدها تضحك من قلبها أبدًا، وزاد

تقطيب أبي وقلقه علينا وكأن تعابير الخوف والقلق صارت جزءًا من ملامحه.

مرت السنوات، وتزوجت وعلى وشك أن أنجب طفلي الأول، أعيش حياة قد يراها البعض رغدة مستقرة، لكن قلبي فقدَ جزءًا منه في هذه الرحلة، لم أعد أشعر بالأمان مهما كان العيش رغدًا والحياة مستقرة، لكني لم أيأس أبدًا.

عندما ترى شابًا سوريًّا ناجحًا، اعلم أن وراء نجاحه قصة مؤلمة، وأنه قد دفع ثمن هذا النجاح مسبقًا، بل وأضعافًا مضاعفة.

أريد أن أخبر ابني الكثير، وأن أحكي له الكثير.

أخشى أن أتحوَّل إلى نسخة أخرى من أخي، لا تعيش سوى الخوف والقلق من المجهول.

أستطيع القول بأنني سعيد الآن.. ولم لا، وأنا أنعم بأسرة محبة، يمتلئ قلبي سعادة كلما اجتمعنا على طاولة الطعام معًا نأكل ونتسامر، ونحن الذين كنا قد حرمنا من ذلك لسنوات طويلة، أنعم كذلك بحياة مستقرة، ووظيفة جيدة.

لماذا نبالغ في تخيُّل الأشياء التي تسعدنا، نتخيل أنها بعيدة المنال وتحتاج لترتيبات خاصة عسيرة

رغم أن ما يسعدنا قد يكون أبسط مما نتصور..

إن هـذه الرحلـة برغـم مـا لاقيـت فيهـا مـن أهـوال إلا أنهـا جعلتنـي مـا أنـا عليـه الآن، رجـل صلـب لا تهـزه الخطـوب، ولا تقهـره مصائـب الزمـان، ولـو كانـت عنـدي ثمـة نصيحـة أنصحهـا لولـدي سـأقول:

- «أبحـر بشـجاعة يـا ولـدي في دروب الحيـاة، وثـق بأنك سـتصل يومًـا إلى بَـر الأمـان، مهـما طـال الزمن»..

وإذا مـت سـأكتبها عـلى قـبري نصيحـة للأجيـال القادمـة مذيَّلـة باسـمي.. مختـار.. الفايكنـج السـوري..

***

خاتمة

مشاعر مختلطة اجتاحتني وأنا أكتب قصة مختار السوري ابن الرقة، الذي يحلم بعودته إليها يومًا..

بدأت تتضح لي الصورة، استعدت قصص صديقاتي وأدركت أن ما حدث لكلٍّ منا كان يجب أن يحدث، وإلا لصرنا بنفس السذاجة وذات الأحلام الوردية حتى أواخر الثلاثينيات وهذا أمر غير مقبول.

ينضج الناس بالمحن، وتصقلهم التجارب، ويقويهم الألم.

وجدتني للمرة الأولى أنظر إلى قصص صديقاتي بزاوية أخرى، أرى شجاعة وبطولة كلٍّ منهن تتجلى في تخطيها لتلك الصعاب، ومقاومتها لكل تلك الصدمات.

كنت أستمع إلى قصصهن من جديدٍ وأنا فخورة بما حققنه، وبما اجتزنه من مِحنٍ؛ حولت كل منهن إلى كائنٍ صَلبٍ لا تقهره الظروف ولا تقدر عليه خطوب الزمان ولا مفاجآت الأيام.

تردَّدَتْ في رأسي كلمات مختار..

إن هـذه الرحلـة برغـم مـا لاقيـت فيهـا مـن أهـوالٍ إلا أنهـا جعلتني مـا أنـا عليـه الآن؛ رجـلًا صلبًـا لا تهـزه الخطـوب، ولا تقهره مصائـب الزمـان، ولـو كانـت عنـدي ثمـة نصيحـة أنصحهـا لولـدي سـأقول:

- «أبحِـر بشـجاعة يـا ولـدي في دروب الحيـاة، وثِـقْ بأنك سـتصل يومًـا إلى بَـر الأمـان، مهـما طـال الزمن»..

وإذا مـتّ سـأكتبها عـلى قـبري نصيحـة للأجيـال القادمـة مذيلـة باسـمي.. مختـار .. الفايكنـج السـوري..

تمـــــت

القـــــاهرة

مايو ٢٠٢١

شيماء محمود